



أولاً - على تسجيل جميع ما يوجد في جميع مكتبات المساجد والزوايا في مدن المغرب وقراءه ، وفي الجبال والصحاري ، وفي القصور الملكية . ومكتبات أهل العلم وأبناء الأسر العلمية ، وهو عمل اذا كنا قد شرعنا فيه منذ الاستقلال ، وحققنا فيه نتائج مهمة لا يستهان بها ، فإنه لا يزال أمامنا زمان طويل لأسباب عديدة لا مجال للحديث عنها الآن .

ويتوقف - ثانياً - على معرفة المخطوطات المغربية المترفرفة في مختلف مكتبات العالم وخصوصاً في أوروبا وأميركا ، وجميع البلاد العربية والاسلامية في أفريقيا وأسيا سوا في الكتبان النظمة أو غير النظمة والتي قد تفرد بمخطوطات مغربية لم يبق لها أثر بالغرب ، وهو أمر لا زلنا لم نشرع فيه لحد الآن .

ويتوقف - ثالثاً - على استقصاء ما ورد في كتب الترجم و مختلف المراجع والمصادر من أسماء المؤلفات المغربية .

وسيبقى عملنا - بعد ذلك كله - ناقصاً نفذاً كبيراً، نظراً إلى أن أصحاب الترجم لا يكادون يتمتعون باحصاء مؤلفات من يترجمون لهم ، وأنهم لا يترجمون لجميع المؤلفين .

- وأن كثيراً من المؤلفين المغاربة غادروا المغرب إلى مختلف البلاد شرقاً وغرباً ، ولم يصل إلى المغرب من أخبارهم وأخبار مؤلفاتهم إلا القليل .

النهاية إلى فهرس المؤلفات المغربية
وإذا لاحظنا أن أهم فهرس جامع للكتب العربية ،

الصعوبات التي تكتنف الموضوع

ليس الحديث الذي طلب منه المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي (حول الكتاب المغربي) بالامر السهل الهين ، ذلك أن الكتاب العربي له تاريخ طويل يستغرق أزيد من الف سنة ، مر فيها مراحل مختلفة ، من نشأة ، ونمو ، واتكال ، وضعف وانحطاط وتخلف ، وانبعاث ، تبعاً للعوامل المختلفة التي خضع لها .

ولكي يكون الحديث عن الكتاب المغربي حديثاً علمياً موضوعياً ، يجب :

أولاً وقبل كل شيء ، أن يكون لدينا احصاء دقيق شامل لجميع ما أنتجه المغاربة منذ دخولهم في الإسلام إلى اليوم ودراسته ثانياً دراسة علمية تقديرية مع مقارنته ثالثاً بما أنتجه غير المغاربة - من عرب وغيرهم - في موضوعه . قبل عصره الذي كتب فيه وفي نفس العصر ، وبعده .

مع التعرف رابعاً بتدقيق على الدور الذي قام به في ميدان نشر المعرفة عموماً ، والثقافة العربية والاسلامية في المغرب أولاً ، ثم في مختلف المناطق الواقعة جنوب المغرب ثانياً ، ومقدار مسامحته في ذلك إلى جانب الكتب العربية الأخرى في مختلف الأقطار ، وخصوصاً المجاورة منها ، أو التي كانت لها صلات ثقافية وثيقة بالمغرب ، وذلك أمر ما نزال بعيدين عنه بعضاً شاسعاً .

فاما الاحصاء الدقيق الشامل ، فإنه يتوقف :

وكم ضاع في الساقية الحمراء وموريطانيا والصحراء الشرقية التي كانت حدودها إلى وقت قريب تتصل بحدود ليبيا .

وكم اختلس سفراً أوروبا وعلماؤها وأطباوها وتجارها من نفائس الكتب ونوارتها التي لا تقدر بمال .

Gaston Deverdun
Etienne Hubert
الفرنسي الذي قضى بمراكنش سنة 1598 م - 1000 هـ
في كتابه عن مراكش أن ايتيان هوير
تمق فيها في اللغة العربية حتى صار من كبار علمائها .
واكتفى بمقداره هذه المدينة متلاً علماً ، ومتلاً جداً
بالخطوطات العربية التي فاقت ما حمله من الأموال
والنفائس الثمينة (ص 436)

مخطوطات اليسكوريال

كما لا تخفي قصة ثلاثة آلاف مجلد التي أرسلها السلطان زيدان السعدي سنة 1020 هـ 1612 م من مرسي مدينة أسفى إلى مرسي مدينة أكادير في ثلاث سفن فرنسية ، على يد القنصل الفرنسي كاستيلان ، فخان البحارة الفرنسيون أصحاب السفن الامانة ، وفروا بالكتب عبر البوغاز ، ولكن الإسبانيين استولوا على الكتب في عرض البحر . ووضعوها في بير الاسكوريو الشهير بالقرب من مدريد . وفي سنة 1081 هـ 1671 م انقضت ساعقة على بير الاسكوريو ، فأحرقت أكثر من الفي مجلد من مخطوطاته العربية .

ومعند استيلاء الإسبانيين على هذه الكتب وملوك المغرب متسلكون بالطالية بارجاعها إلى المغرب تمكّهم بالطالية بارجاع سبعة وستين ميلية ، وكان ذلك من المهمات التي تستد إلى سفراء المغرب لدى البلاط الإسباني .

فقد ذكر السفير الانجليزي جون هاريسون في تقريره أن السلطان زيدان حمله رسالتين : أولاهما مؤرخة بـ ٢٤ يناير 1625 موجهة إلى الحكومة العامة لراضي الواطنة يطلب فيها من هذه الحكومة أن توسيط ملك فرنسا لويس الثالث عشر في أن يعمل على تحرير مكتبة ..

وثانيةهما كلف السفير بتسليمها بنفسه إلى الملك الفرنسي يداً بيده ، يطلب منه فيها أن يتدخل لدى فيليب

وهو كتاب (كشف الظنون) لم يذكر من مؤلفات المغاربة إلا النزير البسيط ، علمنا مسيس حاجة المكتبة العربية عموماً والمكتبة المغربية بوجه خاص إلى فهرس جامع للمؤلفات المغربية يملأ هذا الفراغ .

نكيات المكتبة العربية عموماً ، والمغربية خصوصاً

أضف إلى ذلك ، أن المكتبة العربية خصوصاً في العرب الإسلامي . على اختلاف أقطاره ومناطقه ، قد تعرضت فترات طويلة ، للنهب والاحتلال ، بل والاحراق والالتفاف على يد الصليبيين والمستعمرات : الإسبانيين ، والبرتغاليين ، والفرنسيين ، والإيطاليين ، في الإنجلترا ، وصفلية ، وتونس ولبيبا ، والجزائر ، وأفريقيا الغربية ، بل وفي المغرب الأقصى نفسه !

ويمكن تقدير فداحة الخسارة الفظيعة التي أصبت بها المكتبة المغربية من جراء احتلال مدينة سبتة الغادر . أنا نحن أستحضرنا المركز العلمي الممتاز الذي كان لهذه المدينة الشهيدة وما كانت تزخر به من مكتبات عمومية وخصوصية ، قال عنها محمد بن القاسم الانصاري السبتي في (اختصار كتاب الاخبار) ، عما كان بسبته من سنى الآثار :

انها اثنتان وستون خزانة في الزمن القديم قال : وكان منها في زماننا – يعني أوائل القرن التاسع للهجرة أوائل الخامس عشر للميلاد – سبع عشرة خزانة ، تسع بدور الفقهاء ، والصدور وثمان موقوفة على طلاق العلم ، كخزانة أبي الحسن الشارى ذات الأصول العتيقة ، والمؤلفات الغربية . وأعظمها احدى خزانتي الجامع العتيق . قال : وهي في الكثرة بحيث لم يشد منها فن من الفنون ، ولا نوع من المعارف أصلاً . مع تعدد مصنفات ذلك الفن وكثرة دواوينه ، ويقامى هذه الخزائن مفترق ، منها بالمدرسة الجديدة خزانتان ، وبمسجد القفال خزانة واحدة وبمسجد مقبرة زكلوا أخرى وهو أكبر مسجد بسبته بعد المسجد الاعظم منها .. وخزانة أخرى بجامع الريض الأسفل . (١)

وكم ضاع من مؤلفاتنا في شواطئنا الشمالية والغربية التي استمرت سنتين طويلة عرضته للاعتداء الصليبي خصوصاً من قبل البرتغاليين والإسبانيين .

(١) ص. انشر ليفي بروفنسال ، و ص 82-83 مجلة تطوان العددان ٣-٤ سنة 1958-1959 .

والثبت من مضمونها ، واعز اليه أن يسهل مهمتهم (4) وفي نفس هذا القرن الحادى عشر الهجرى السابع عشر العيلانى ، أنشأ بارتيلمى Barthélemy فى منزله بباريس خزانة كتب نادرة الوجود بما استملت عليه من مخطوطات عربية وأفرأ اشتراك له أكثرها بعض المصاحف الاجنبى من بلاد الشام واليمن والمغرب الأقصى (4)

وأما بعد الاحتلال الأجنبى للمغرب

فقد تهافت المستعمرون على اختلاس المخطوطات والاعتداء عليها ففى الخزانة العامة بالرباط قائمة باسماء المخطوطات التى ضاعت فى فترة الاحتلال .

وأخبرنى صديقى الإمام محمد البشير الإبراهيمى مد الله فى عمره ، عندما كنت ضيفه بتلمسان فى ربىع سنة 1936م أن المشتغل بليل كان يعرض فى (المدرسة) بتلمسان مجموعة من المخطوطات العربية فى الرياضيات والفالك ونحو ذلك ، قال : وهى مما اختلسه من مكتبة التروين عندما كان يشرف على تسجيل كتبها فيما بين 1914 - 1916 م !

كما تحدث زميلنا الاستاذ محمد العابد الفاسى فى رسالته (الخزانة العلمية بالمغرب) عن بعض نفائس المخطوطات التى كانت بمكتبة التروين ولم يبق لها أثر ، ومنها ما بقى إلى ما بعد الحماية وسيطه بليل فى القائمة المطبوعة بفاس لكتب المكتبة مثل جزء (نزهة المشتاق) (5)

ويقال أن السلطات الفرنسية استعارته من المكتبة لتعرضه فى معرض فاس ، ولكنها لم ترده ، ويقال انه أرسل إلى باريس .

ونشرت جريدة العلم سنة 1956م رسالة من مراسليها فى الريصانى ذكر فيها أن الجيش الفرنسي ، عندما احتل الريصانى أحرق المكتبة التى كانت بضريح مولاي على أشرف جد الأسرة المالكة .

وأخبرنى الاستاذ الزيتونى محافظ مكتبة المعهد الاسلامى بتارودانت أن الجيش الفرنسي أحرق كذلك مكتبات بالإقليم السوسى عند احتلاله .

وانه لمن المؤسف أشد الاسف أن تبقى المكتبة

(2) مكرر) ج 2 ص 586-587 .

الثالث ملك إسبانيا لاعادة الكتب التي استولى عليها القرصنة الإسبانية (2) .

ومن تلك مطالبة الوليد بن زيدان بكتب الاسكورى بالمنجانى دويرادو سنة 1040 هـ 1632 م كما عند دوفيردان في كتابه (مراكش) (ص 435) :

ومطالبة سفير الملك محمد بن عبد الله احمد الفرازى سنة 1180 هـ 1766 م من كارلوس الثالث Carlos III (نتيجة الاجتهد ص 58) .

ومطابقة السفير ابن عثمان المكتناسى سنة 1193 هـ 1779 م من كارلوس الثالث أيضا فاما ما مداده كتابا عربية للمولى محمد بن عبد الله ، وقال عن كتب الاسكورى : انها محبطة لا يمكن التصرف فيها ؟ حسبما ورد في رحلته (الكسير ، في افتتاح الاسير) التي بقيت مدة طويلة معتبرة ضائعة ألى أن وفقت للعثور على ثلاث نسخ منها : أولها بمكتبة تامكروت وأشتريت ثالثتها للخزانة العامة بالرباط ، وعثرت على ثالثتها بخط المؤلف بمكتبة القصر الملكي بالرباط ، ويقوم مركز البحث العلمي التابع لجامعة محمد الخامس بالرباط بنشرها بتحقيق صديقنا الاستاذ محمد القاسي عميد الجامعة ، ورئيس اللجنة التنفيذية الليونيسكو .

لouis الرابع عشر

ونذكر الكونت فيليب دي طرازى فى كتاب (خزانة الكتب العربية في الخافقين) أن Louis الرابع عشر كلف سفيره دي مونسو De Monceaux سنة 1667هـ 1667 م بمهمة خطيرة إلى المغرب الأقصى ، وهي أن ينقذ تفاصيلا دقيقة عن مخطوطات عربية وفارسية ويونانية وغيرها ويبتهاجها له . وقال له : أن من تلك المخطوطات شيئاً كثيراً في خزانة جامع التروين بمدينة فاس .

كما كلفه أن يشتري له الفا وسبعين قطعة من الجلود المغربية الكبيرة الحجم التي يصلح كل جلد منها لتجعيد كتابين ضمنين (2) .

وفى سنة 1092 هـ 1682 م كتب Louis الرابع عشر إلى سانت أمان سفيره لدى سلطان المغرب الأقصى : « انه سمع بوجود كميات عظيمة من الكتب الخطية فى فاس ، ولاجل ذلك أوفد إليه بعض أهل المعرفة للاطلاع عليها ،

(2) مجلة تطوان ، العدد التاسع 1964 ص 127 - 128

(4) دي طرازى 2/588 (4) ج 613/2 (5) ص 34,31

والمناظرات والرد على المبتدعة .
وفي التصوف والأخلاق ، والمواعظ والمواجد
والأنواع والمعاقب وفى الاراد والاذكار والدعوات
والتصليات على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفى شرح
اسماء الله الحسنى ، وخواصها وفى سر الحرف وفى
السحر وتبيير الرؤيا ، ونحو ذلك .

والفوا فى التربية والتعليم ، وتقسيم العلوم
والسياسة والنظم الادارية وفى نصح الملاوك ونقض
المجتمع .

وفى الحساب والتقويم والتتعديل والجبر والهندسة
والفالك وإلزاج والتنجيم

وفى الطب والصيدلة والكيمياء والفلاحمة والنبات
والحيوان والبيطرة والطبيعة وعلوم الحرب والبحر .
وفى الجغرافية والرحلات وتاريخ الدول والسلوك
ومدن والأقاليم والقبائل وعلم الانساب .
وفى النحو والصرف واللغة وقواعد الرسم والبلاغة
والعروض والقوافي والموسيقى .

وفى فنون الابن المختلفة ، من امثال حكم
ومحاضرات ومحاكمات ادبية ومقامات وفي الحماسة
والشعر بموضوعاته المختلفة على العموم فصيحاً وشعبياً،
وفى التنثر انتفياً ، والالغاز ، والهزل والمجون ، والقصص
والخرافات والاساطير وغير ذلك .

وقل ان يوجد موضوع خاصه الكتاب العربي لم
يساهم فيه الكتاب المغربي كما انه لا تكاد توجد مشكلة
فكريّة او اجتماعية شغلت بالمجتمع الاسلامي لم
يتناولها الكتاب المغربي بالدرس والتمحيص .
والوقت الضيق المحدد لهنها الحديث لا يسمح بايراد
أى مثال لشيء مما ذكرناه .

. ولكن نورد كلمة موجزة عن مسامحة الكتاب المغربي
في حركة (التعريب) اي الترجمة عن اللغات الاجنبية
إلى العربية .

من المعلوم أن هذه الحركة عرفت عصرها الذهبي
على عهد المأمون العباسي في الربع الاول من القرن 3هـ
الثالث الاول من ق 900 ثم لم تستمر بعد ذلك الا قليلاً .
ولعل آخر كتاب ترجم إلى العربية في القرون
الوسطى في الشرق العربي هو كتاب (شامنامه)

المغربية خالية من كتب تسجيل ظائعات الاحتلال الاجنبي
في مختلف اطراف البلاد !

وقد كان من نتائج اعتداءات المستعمرات وعملائهم
على المخطوطات وسرقتها واغتصابها أن صار المخطوطون
يتسترون على ما عندهم منها ويختفونها حيث لا تصل
إليها العيون ، مما عرض كثيراً منها للضياع أيضاً !

وإذا كان بعض ما ثُبٰت واختلس بطرق دينية قد
وضع في بعض المكتبات المنظمة بحيث يسهل أحياناً على
بعض الباحثين الاطلاع عليه والاستفادة منه . رغم ما
يعرض ذلك من صعوبات في بعض الأحيان ، فإن كثيراً
ما اختلس قد انقطع خبره وأكتفى مصيره الفموض
والابهام .

ونشير بهذه المناسبة إلى وجوب صدور تشريع
يحميتراثنا الثقافي فيمنع بناتاً خروج أي مخطوط من
المغرب ويعاقب بالمخالف باقسى العقوبات خصوصاً ونحن
نساعد على تصوير كل مخطوط يطلب من تصويره مما
كان أهميته وقيمه ، ولا نثير في وجه طالبه أية صعوبة،
وعندنا من الامكانيات المساعدة على ذلك ما لا يوجد
نظيره في أي قطر آخر من القارات العربية .

هذا عن الاحصاء الدقيق الشامل

وأما الدراسة العلمية الفقيرية المقارنة

فيكفي لبيان بعد ما بيننا وبين الوصول إلى نتائج
قطبية فيها ، أن نشير إلى أن الكتاب المغربي قد تناول
- بحسب مختلفة - جل الموضوعات التي تناولها الكتاب
العربي على العموم .

فقد الف المغاربة في علوم القرآن ، من رسمه
و Robbie وقراءاته وتجويده وتفسيره ونحو ذلك .

وفي علوم الحديث روایة ودرایة . فالفوا في
مصطلح الحديث ، وفي السيرة النبوية وفي فقه الحديث ،
وفي أسانيد الكتب والفالرس وترجم الرجال ، وفي
الجرح والتعديل وغير ذلك ، كما وضعوا الشروح
والتعليق على كثير من كتب الحديث .

والفوا في أصول الفقه وفروعه ، من عبادات
ومعاملات ، ومواريث ، وتوثيق ، وقضاء ، وفي أحكام
الجهاد ومناسك الحج . وفي النوازل والإحکام . وفي الفقه
المقارن وفي قواعد الأحكام والفرق والحسب ، والسياسة
الشرعية ، ونحو ذلك .

والفوا في المقائد والكلام والمنطق والفلسفة والجدل

وكان الفراغ منها في 28 رمضان ١٢٦٨هـ ١٥٧٢ ميلادي .

وقد قام بالتعريب جماعة من المغاربة بالقصر الملكي بفاس بأمر من السلطان محمد الرابع رحمة الله وتحت إشرافه وتوجيهه ، وبعدما أتموا عملهم بصفة نهائية كتب السلطان بنفسه مقدمة للترجمة تلخصها فيما يلى :

أنى لما نظرت في هذه العلوم الرياضية التي منها الحساب والهندسة والهندسة ... وجدت الوقوف على كنه التحقيق المغض عنها لا يكون بمجرد التقليد فيها ... لأن النفوس الكاملة لا تطمئن الا باليقين الذي تسلم حججه ، بعد أن تغوص في بحاره وتخوض لججه ولما كان ذلك لابد فيه من الرصد للأجرام السماوية ومشاهدتها أمكتتها من أفلاتها ومقادير حركاتها في الزمان المختلفة .

وكان الرصد المذكور في بلادنا وعمرنا متعدراً أو متعدراً ، ولكن ما لا يمكن كله ، لا يترك كله ، بحثنا من أجل ذلك كل البحث عن أقرب الأرصاد إلى زماننا ، فوجدنا كتاباً حفلاً عجيباً ، جاماً لكل ما يحتاج إليه الناظر في هذه الصناعة ، بحيث لا يتوقف على غيره من الأوضاع ... مع ما اعتمده مؤلفه والتزمه من التحرير البالغ غاية الغايات ، والتوفيق على كنه العوينات وكشف الخفيات ، وتأييد المسائل بالحجج الواضحة اليقينية ، والاشكال الهندسية والأمثلة العديدة ، والاقيسة الجبرية ، ورد الفروع إلى أصولها التي بنيت عليها ، وأخذ الآقوال بدلائلها الخاصة بها ، ومقابلة النماذج القديمة بعضها ببعض ، ثم أخذ ما وافق العيان والرصد الجديد ، والغاء ما دون ذلك مما تكتبه المشاهدة ويقوم البرهان على بطلانه

ـ لا أنه بالسان والقلم الأعجميين ، لأن مؤلفه رومي من أهل باريز .

وكان من فضل الله علينا أن حضرتنا العالية بالله قد اختوت على جماعة وافرة من آتونهم ظلال دولتنا الشريفة المنصورة الظافرة ، ربيناهم في خدمتنا أحسن تربية ، وصفيناهم لاقتربنا أكمل تصفية ، واطلبناهم

الفردوسي التي عرّبها الفتح بن على البنداري الاصبهاني سنة ٦٩٧هـ ١٢٩٧ م (6)

ثم لم تعد هذه الحركة للظهور في الشرق العربي إلا في النصف الأول من القرن ١٣٩٤ م على عهد محمد علي في مصر ، كما هو معلوم (7)

أما في المغرب فقد استمرت هذه الحركة إلى سنة ١٥٩٢هـ ١٠٠٠ م وما بعدها .

فقد ذكر المقرئ التلمساني في (روضة الأس ، العاطرة الانفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس) الذي يقي ضائعاً مدة مدينة إلى أن وقع العثور عليه أخيراً بالقصر الملكي ونشرته المطبعة الملكية : أن بعض أكابر الروم قدم على أحمد المنصور الذهبي وأتحفه بكتاب في الطب مكتوب بالقلم الأعجمي ، فعرّبه العالم البطيل الطيب أبو القاسم الوزير الغساني من أهل فاس وجعل له خطبة ، وزاد فيه زيادات وسماء (مغني الطبيب عن كتب أعداء الحبيب) (8) .

وسيأتي الكلام على كتاب (العز والمنافع) الذي ترجمه أحمد بن قاسم الجرجي ترجمان السلطان زيدان السعدي وأولاده .

ونذكر دوفيردان Gaston Deverdun في كتابه (مراكش) أن انتوان دوسانت ماري الدومينيكانى الإلننسى ، الذي كان أسيراً بمراكب ، اشتغل مدة ثمان سنوات بأمر من زيدان بن المنصور بترجمة الكتب اللاتينية التي كانت عند زيدان إلى اللغة القشتالية ، وعنها ترجم إلى اللغة العربية (9) .

وأهم عمل مغربي وصلنا في ميدان التعريب هو كتاب (الجامع المقرب النافع للمغرب) الذي عثرنا عليه بمكتبة القصر الملكي بالرباط ، وهو تعريب لارصاد لالاند الفرنسي الذي كان رصده الأخير سنة ١٧٧٣ م - ١٢٨٦ م

وتقع الترجمة في 3 مجلدات ضخامة في الحجم الكبير فيها تسعمائة وثمان وسبعين ورقة وفيها أربعة آلاف ومتنان وعشرون فصلاً . وتشتمل على كثير جداً من الجداول والأشكال الهندسية .

(6) كشف الظنون ج 2 ضلع 1026 .

(7) جرجي زيدان : تاريخ أدب اللغة العربية . ج 4 ص 157 (8) ص 217 (9) ص 434 .

قاموا بدراستها . (بعد القاء هذه المحاضرة أخرجت المطبعة كتاب (الزاوية الدلائية ودورها الدينى والعلمى والسياسى) للاستاذ محمد حبى ، وما زلنا ننتظر تحقيقه لكتاب (الدور الضاوية) لسليمان الحوات) .

على أنتا - مع هذا التاريخ الطويل الذى يزيد على ألف سنة ، ومع هذا الشمول لمختلف الموضوعات ومع هذا الانتشار في مشارق الأرض ومقاربها شمالها وجنوبها .. ومع ضياع ما ضاع واختفاء ما اختفى - ما زلنا نحتفظ - مع ذلك كله وكثير غيره - بالآلاف من المؤلفات المغربية ، ولدينا قليل من القوائم والدراسات التي تسمح بالحديث عن الكتاب المغربي حديثا يتضمن الخطوط العريضة الكبرى ، مثل :

كتاب النبوة المغربي في الأدب العربي للاستاذ عبد الله جنون ، ومقالات الاستاذ محمد الفاسي عن تاريخ الأدب المغربي البعضرة في الصحف والجلals والعلوم والأداب والفنون على عهد الموحدين للاستاذ محمد المنوني ، وليل مؤرخ المغرب للاستاذ عبد السلام ابن سودة ، وسوس العالمة للاستاذ المرحوم محمد المختار السوسي . والطب والاطباء بالمغرب للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله ، وتاريخ الأدب الجغرافي العربي للمستشرق الروسي كراتشوفسكي ، ترجمة صالح الدين عثمان هاشم ، والعلم عند العرب وأثره في نظرور العلم العالمي للعالم الإيطالي آلد ومبيلى ترجمة عبد الحليم التجار ومحمد يوسف موسى ، وتراث العرب العلمي لقدری حافظ طوقان وفهرس الفهارس والإثباتات لعبد الحي الكتاني .

الكتاب المغربي جزء لا يتجزأ من الكتاب العربي

واللاحظة البارزة الاولى التي تبده الباحث في الكتاب المغربي ، هي انه وان كان يختلف عن الكتاب العربي في المشرق ، في ان له :

1) خطأ عربيا خاصا مشتقا من الخط الكوفي القديم ، ويتميز بزيادة الحروف المعقوفة على أحصار البجاء العربي ، وينقطع الماء بواحدة من أسفل ، والكاف بواحدة من فوق . (راجع مثلا عبد الفتاح عبادة في كتاب انتشار الخط العربي) (10) .

لمكان التخصص على أسرار هذه العلوم ، وغذائهم من جنى هذه الفنون بطيب الطعم ، حتى أصبحت حضرتنا العزيزة كعبة للنجباء الحناف ، ومطافا للعلماء من جميع الأفاق ، من كل عارف بالأسنة والاقلام ، متلهي لاكتساب الكلمات بالاستعلام ، فأمرناهم بتعريب الكتاب المنكور واخراجه من الظلمات إلى النور ، فصرفوا كل عنابة إلى ذلك ، ودابوا عليه أنه الليل وأطراف النهار مدة مدیدة ، مع معاناة اكيدة ، ومشقة شديدة .

وكذلك بمرأى مما وسمع ، ومحضر لنا ومجمع ، تعرض علينا كل يوم مخرجانهم فنبالغ لها بالتفريح والتصحيح ، ونرجع منها ما هو داع إلى الترجيح ، حتى يز بحمد الله في احسن الصور وأجملها ، واتس الوجه وأكملاها .

، وهو مرتب الآن بمكتبة القصر الملكي تحت رقم ٢٠٦٨ .

ونذكر صديقنا الاستاذ عبد العزيز ابن عبد الله في كتابه (تاريخ المغرب) (تحت الطبع) ان الفصل الفرنسي لوكونت دوشكواط ، تحدث عن المام الملك محمد الرابع باللغة الفرنسية وقيامه بتعريب بعض الكتب العلمية مثل كتب نيوتن ، في علم الفلك ، على يد ترجمان انجليزي من مالطة اعتنق الاسلام .

وقد أكد ذلك عام ١٨٧٢ م (١٢٨٨ هـ) وزير فرنسا بطنجة طيسو .

فكم من جهود يجب أن تتوفر - يا ترى - على دراسة هذا التراث الضخم في مختلف العصور ؟ ومقارنته بغيره ؟ قبل أن نستطيع تقييمه تقييمًا نزيها لا تعير فيه ولا اجحاف ؟ نعم أنتا قد بذلنا السير في تحقيق هذا الهدف الوطني ، وخصوصاً عندما أنشئت شهادة الدراسات العليا بجامعة محمد الخامس .

فقد أثبتت عنابة خاصة للتوجيه اهتمام طلبي من حملة شهادة الأجازة إلى الاعتناء بتحقيق مخطوط مغربي ، واقتصرت على بعضهم مخطوطات معينة لدراستها ، وقد نال البعض منهم شهادته بالفعل ، ولكن مما يؤسف له أن المطبعة لم تخرج لحد الآن شيئاً من المطبوعات التي

(10) (ص 76-79)

2) وترتيبها المحرف يختلف عن ترتيبها في المشرق .

(3) وأرقاماً عربية خاصة هي غير الأرقام الهندية المستعملة عند عرب المشرق بل أن الموثقين بفاس لهم أرقاماً أخرى غير النوعين السابعين يؤرخون بها الوثائق والعقود . وكثيراً ما تورخ بها المخطوطات وتسمى بالقلم الفاسي . وقد خصت بالتأليف مثل كتاب أبي العباس ابن الينا المراكشي (في أعمال الحساب والزمام) وبآخره رجز في ذلك . ورسالة غير منسوبة (في أشكال الزمام والعمل به) وبأولها نظم في الموضوع (II) ومنظومة الإمام أبي السعود الفاسي في 30 بيتاً ، وقد شرحها أبو العباس سكيرج في (ارشاد التعلم والناسى ، في صفة أشكال القلم الفاسي) ذكر فيه أن هذا القلم مأخوذ من القلم الرومي ، وهو مطبوع على الحجر يفاس في ثلاث ورقات كما ترجمة إلى اللغة الفرنسية فيala

E. Viala
بعنوان الخط الفاسي L'exposé des signes de Fès وقد طبع بالجزائر سنة 1927 .

فإن الكتاب المغربي في صميمه وعمقه – رغم هذه الاختلافات – جزء لا يتجزأ من الكتاب العربي . ذلك أن المغرب – وإن كان قد انفصل سياسياً عن الخلافة الإسلامية بالشرق في عهد مبكر ، وأنشا له خلافة خاصة ، – فإنه – من الناحية الثقافية – قد بقي يكون مع البلاد ذات الثقافة العربية في آسيا وأفريقيا وأوروبا واحدة ثقافية متينة التي متداخلة الأجزاء ملتحمة الأطراف متشابكة الفروع والاغصان .

وهكذا كان الكتاب العربي ، من الحجاز ، أو اليمن ، أو العراق ، أو ما وراء النهر ، أو بلاد النجم . أو الهند ، أو السند ، أو بخارى ، أو جاوة ، أو بلاد الروم (الترك) أو الشام وفلسطين أو مصر ، أو صقلية ، أو المغرب الأدنى ، أو المغرب الأوسط ، أو الاندلس ، أو السودان المغربي على اختلاف أقاليمه واقطuarه ، يجد مكانة – إلى جانب الكتاب المغربي – في الكتب المغربية ، في المساجد والمدارس ، والربط ، والزوايا وفي قصور الملك والأمراء والوزراء ، والرؤساء ، وفي بيوت العلماء والأسر العلمية ، ويتداول بين أيدي القراء في فاس ، وتازة ، ومكناس ، وزرمون ، وسبتة ، وطنجة ، وتطوان ، ووازان ، والريف ، والجبل ، والشان ، والمزمه ، والقصر الكبير ، وسلا ، والرياط ، وتادلا ،

(11) رقم 1061 بالخزانة العامة بالرباط .

وقد عثرت في مكتبة القصر الملكي بالرباط ضمن مجموعة على رسالة كتبها أحد علماء المغرب (لم يسم في الرسالة) إلى علماء مصر عندما احتلها الفرنسيون ينتقد عليهم رضامن بالمقام تحت الحكم الاجنبي .

ولا يبعد أن تكون من إنشاء العلامة المغربي الكبير الشيخ الجيلاني السباعي الذي نال في الترب مثما عظيمًا في العلم والدين ثم جور بالحجاز ، فلما وصل الخبر باحتلال الفرنسيين لمصر صار يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد ، وقرأ بالحرم كتاباً مؤثراً في معنى ذلك فاتعظ جملة من الناس وركبوا معه البحر إلى الصعيد المصري وحاربوا الفرنسيين في عدة مواقع كما عند البرجتي (12) ثم اعتزل ومرض ومات بقرب مرضه ودفن هناك بقرية يقال لها أحايا (كما عند التهامي بن محمد الأوبيري الحميري في (اتحاف الخل المواطي) (خط) .

الأمثال الشعبية والشعر الملحون

ونجد في الأمثال الشعبية المغربية المتعلقة بالكتب نفس الظاهرة التي أشرنا إليها ، مثل قوله :

منشى يقرأ بن السبكي ، وخلا الجرومية تبكي !
اللى حب بقرأ بالتنبا ، يقرأ سيني خليل والالفيا !
سيدي خليل والرسلا . ما خلوا حتى مسالا
(يريدون رسالة ابن أبي زيد القيروانى)
الغزالى . ما يخلق قلب سالى !

بع الدار ، واشرى لتكار . يريدون اذكار النبوى .
كما تجد ذلك في الشعر الشعبي (الملحون) ومن ذلك قصيدة (انحراس) لمحمد الامغارى حيث يأتي البطل أخيراً إلى الحراس في صورة فقيه قارى للكتب المختلفة ، مثل لستونية ، والجرومية والالفية ، والموطأ والبخاري والعيني ومسند احمد وخليل والخرشى والزرقانى والرهونى والرسالة ، وبذلك خدع البطل الحراس القارى ببيان لعيال لكن انداز . كما يقول الشاعر في (الحرية) (الازمة) .

الكتاب المغربي خارج المغرب

وكما سد الكتاب المغربي الحاجة المحلية في موضوعه ، متعاوناً على ذلك مع الكتاب العربي الوارد من خارج المغرب ، فإن قسماً مهماً من الكتاب المغربي تجاوز النطاق المحلي وانتشر خارج المذرب ليسد حاجة

كما الف الكوراني في مسألة خلق الأفعال محتاجاً لمذهب أمام الحرمين ، رسالة كتبها ببرسم تلميذه الرحالة المغربي أبي سالم العياشي ، الذي أوردها بنصها في رحلته (ماء الموارد) (راجع ج ٢ ص ٣٦٠ و ٤٢٩ - ٤٤٣) .
فرد عليه أبو عبد الله الفاسي (راجع في الخزانة العامة رقم ٣١٥٤) والمهدى بن احمد الفاسي ، وسمى هذا زيه (النبذة التيسيرة ، واللمعة الخطيرة ، في مسألة خلق الأفعال الشهيرة) . راجع في الخزانة العامة رقم ١٢٣٤ كـ .
ووجه المصريون أسئلته لفقهية فاس أبي عبد الله ابن الحسن بنناي فاجاب عنها بجزء مطبوع وعند . مرور الشيخ احمد بن العربي ابن الحاج الفاسي بطرابلس الغرب في طريقه إلى الحج سنة ١٠٩٨ تلقى عنه بعض الطلبة بيتهن لشيخه الشیخ میارة في التقین اذا تكررا ، فاطلع عليهما تونسی من بطربلس آتیا من مصر فانتقد مما وارسل أحد اذكياء الطلبة الطرابلسیین انتقاداته للشيخ ابن الحاج فاذن هذا لتميذه محمد بن محمد بن حمدون بنناي فكتب (الكوكب الساطع والعقد المنظوم ، في بيان التعیین باعتبار النطق والمفهوم) (الخزانة العامة رقم ٢٠٠٨ د)

— 28 —

وأنكر مفتى مصر الشيخ محمد عبد التوسل فكتب الوزاني مفتى فاس في الرد عليه (النصح الخالص) وأفتقى الشيخ محمد عبد عبده بابحة أكل نبيحة أهل الكتاب ولو خالفوها في نسبتها طريقة المسلمين . وقامت ضجة كبيرة في الشرق ضد من أجل ذلك فافتى الوزاني مفتى فاس بتأييد فتوى محمد عبد عبده .

ونشرت جريدة ثمرات الفنون بيروت كلاماً للشيخ محمد عبد عبده حول الجبر والاختيار فكتب احمد الرهوني الطواني « تحرير المقال » .

ونشر بتونس متفرق من قسنطينة يقال له ابن منها رحلة الورتلاني وعلق عليها تعليق طعن فيه في المغاربة ، فألف الوزاني (السيف المسلول باليد اليمني ، القطوع به رأس منها) فعاد ابن منها وألف (السيف الهند المسلول) وقال انه اختصره من رسالة كبرى التي شتم فيها الوزاني شتماً فظيعاً !
ومن ذلك المعاورات بين احمد البكمي السوداني وبين اكتسوس المراكشي حول الطريقتين القدرية والتجانية في مؤلفات عديدة بعضها مطبوع .

(12) العبرتى : عجائب الآثار ٣ ص ٤٤ و ٥٧

والدرر اللوامع في قراءة نافع لابن بسي الرباطي التنازي .
ومورد الظمان للخاز الفاسي وشرح ابن عاشر ورائفة الشريشى السلوى المراكشى ثم المصرى .
وشرح ابن عباد الرننسى ثم الفاسى على حكم ابن عطاء الله السكندرى .
وأحزاب أبي الحسن الشانلى الغربى دفين مصر .
ومؤلفات ابن البناء المراكشى وخصوصا تلخيص أعمال الحساب ، ومنهاج الطالب فى تعديل الكواكب .
ومؤلفات ابن غازى المكتناسى ثم الفاسى وخصوصا الممنية ، والفهرسة ، وشفاء الغليل وتكبيل التقىد وحواشى البخارى .
ومؤلفات زروق الفاسى دفين ليبيا وخصوصا شروح الحكم .
ومؤلفات على بن ميمون الفمارى دفين لبنان ، مثل بيان غربة الاسلام على يد صنفى التفقىه والتلقىقة فى مصر والشام وغيرهما من بلاد الاعجم .
ومؤلفات محمد بن سليمان الرويدانى نزيل المدينة المنورة ودفين دمشق الشام وقد طبع بعضها فى الهند .
ومؤلفات محمد بن ادريس الميسورى دفين عسير باليمن .
ونظم المرشد العين لابن عاشر الفاسى وشرحه لميارة . وشرح التاونى ابن سودة الفاسى على تحفة ابن عاصم الاندلسى .
وحاشية بنانى الفاسى على شرح الزرقانى على مختصر خليل .
وحاشية الرهونى على كل من المختصر وشرح الزرقانى وحاشية بنانى .
والابريز لأحمد بن مبارك السجعماوى .
وجواهر المعانى لعرازم برادة الفاسى .
والوسط فى أدباء شنجيط لأحمد الأمين الشنقطى نزيل القاهرة .
ومؤلفات محمد محمود الشنقطى نزيل القاهرة .
والاستقصا للناصرى السلوى .
وسلوة الانفاس لابن جعفر الكتانى .
والرسالة المستطرفة له .
وتحاف اعلام الناس لابن زيدان العلوى المكتناسى .
والفكر السامى للحجوى الفاسى نزيل الرباط . والتراث

ماسة في المراكز العلمية الأخرى ، وبذلك تحقق وحدة الثقافة العربية على أتم الوجه .
ومن أمثلة هذا القسم :
مقدمة ابن أجرروم الفاسى .
وكراستة الجزوی المراكشى في النحو وشرح المكودى على الفية ابن مالك ، والشفا للقاضى عياض السبنى دفين مراكش ، وبقية مؤلفاته ، كالمدارك ، والشارقى والتبنيات ، والأكمال ، واللامع ، وبقية الرائد والفهرسة .
وانوار البروق في تعقب مسائل الفروق لابن الشاطىبي .
ومناج التحصل من نتائج لطائف التأويل (شرح المدونة لابى الحسن على بن سعيد الرجراچى المعروف بابن تامسri (ق) 7) .
وبيان الوهم والإيهام ، الواقعين في كتاب الأحكام لابن القطبان الفاسى دفين سجطمسة .
وزرعة المشتاق ، للشريف الأدرسي السبتي .
ورحلة ابن بطوطة الطنجي .
والقرطاس لابن ابى زرع الفاسى .
ووصف أفريقيا للحسن الوزان الفاسى المعروف عند الأوروبيين بليون الأفريقي .
وجامع المبادئ والغايات فى علم الميقات لابى على الحسن المراكشى .
والعجب فى أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى نزيل بغداد .
ورحلة ابن رشيد السبتي دفين فاس (ملء العينية)
والذيل والتكميلة لكتابي الموصول والصلة لابى عبد الله المراكشى .
وحاشية ابن الطيب الشرقي الفاسى نزيل المدينة المنورة ودفنه على القاموس المحيط للفيروز باشى .
وكتاب الوشاچ ، وتنقيف الرماح . فى رد توهيم المجد الصحاح ، لعبد الرحمن بن عبد العزيز التالىى المدنى .
وديوان صفوہ الادب ، لابى العباس الجراوى التالىى الفاسى .
وارجوزة ابن الياسمين الفاسى فى الجبر ، وللائل الخيرات لابن سليمان الجزوی دفين مراكش .
وكتاب (المدخل) لابن الحاج الفاسى دفين مصر .

الإدارية نعبد العجى الكتاني .

وفهرس الفهارس له .

والنبوغ المغربي لمبد الله جنون الفاسي الطنجي .

والنقد الذاتي لعلال الفاسي نزيل طنجة والرياط .

وتاريخ الحركات الاستقلالية له .

ودليل مؤرخ المغرب لمعبد السلام ابن سودة

الفاسي .

وغير ذلك كثير .

وذكر الشيخ عبد المجيد المنالي الزيادي الفاسي في (أفاده المرتاد ، في التعريف بابن عباد) ان رسائل ابن عباد الرندي ثم الفاسي لما بلغت لأبي عبد الله البلاي المصري صاحب اختصار الاحياء وغيره جعلها على رأسه وجعل يقول : أنا عبد لابن عباد ! (الخزانة العامة رقم ٤٧٢ ونسخ أخرى) .

وذكر اليافري في (الصفورة) (١) أن كتاب (نتائج التحصيل ، في شرح التسهيل) لمحمد المرابط الدلائي الفاسي (ق ٢) لما بلغ القاهرة تنافس فيه الطلبة حتى بيع بنحو عشرين دينارا .

تقسيم الكتاب المغربي :

ومكذا نستطيع ان نقسم الكتاب المغربي الى قسمين :

١) القسم الاول الكتاب الذي ألفه المغاربة في المغرب او خارجه ، سواء بقيت نسخه في المغرب او لم يبق الا خارجه .

ويلحظ بهذا القسم الكتاب الذي اقترح تأليفه ملوك وأمراء ورؤساء مغاربة على مؤلفين غير مغاربة ، سواء نزحوا عن بلادهم الى المغرب او لم يصلوا الى المغرب بالمرة .

٢) والقسم الثاني الكتاب الذي انتقل الى المغرب من خارج المغرب ، فاحتفظت به المكتبة المغربية وتبنته ، واتخذه المغاربة كتاب دراسة ، ومراجعة ، وخدمه بالشرح والتعليق واعتمدوه في الفتوى والقضاء والتوجيه والارشاد والوعظ ، وتولوا طبعه داخل المغرب وخارجه وكذلك ما انفرت به المكتبة المغربية ، ولم يبق له اثر في وطنه الاصلي .

للكتاب المغربي طابعه الخاص

اللاحظة الثانية التي تلفت نظر الباحث في الكتاب المغربي ، هي أنه - ضمن وحدة الكتاب العربي والثقافة العربية - له شخصيته التميزة وطابعه الخاص . فهو - وقد فتح صدره الاستفادة من الكتاب العربي الوارد من مختلف الأقطار - استطاع أن يتفوق حيناً وان يجمع بين محسن تجربتين او تجارب حيناً ، وان يقوم بدور الحكم أحياناً أخرى .

ولم يكن اليمان العميق الراسخ للمؤلف المغربي بوحدة الثقافة العربية بين شرق العروبة وغربها ايماناً سليباً يأخذ ولا يعطي ، ويقبل كل ما يرد من خارج المغرب تقبل التقديس والتسلیم من غير بحث ولا تمحيص ، بل كان على العكس من ذلك ايماناً ايجابياً يستفيد الى أقصى حد ممكناً من الكتاب الوارد على المغارب مع اخضاعه للنقد والتعميّص والتذبيب والترتيب .

فهو يختصر ما هو مطول ، ويذهب ويرتب ما هو في حاجة الى تهذيب وترتيب وينبذ ما يحتاج الى تذليل ، وينظم النثر ليسهل حفظه ، ويشرح المتن ليسهل فهمه ، ويبحشى على الشرح ، ويتعقب ما يتوقف على تعيّب . ويجمع بين كتابين او اكثر في كتاب واحد اذا كان في كل واحد منها ما ليس في الآخر .

فقد نقل المغربي في (ازمار الرياض) عن تعليق بعض اتلاخرين :

ان صناعة التأليف انتهت في علماء المغرب على صناعة اهل المشرق لشيخ شيوخ العلماء في وقته ابن الازدي المراكشي في جميع تصانيفه (21) .

وان القسماء كان لهم اصطلاحان في تدريس المدونة : اصطلاح عراقي واصطلاح قروي - وبعدما اوضحهما قال: وقد سلك الفاضي عياضي في (تنبهاته) مسلكاً جمع فيه بين الطريقتين والمذهبين (22) .

ونقل الامام أبو اسحاق الشاطئي عن شيخه علامه فاس ومقفيها ابن العباس القيّاب أنه كان يقول : ان ابن

(14) محمد مخلوف : شجرة النور الزكية ص 1، 3 رقم 263 (15) ابن فرuron : الياج ص 163

(16) أحمد بابا : نيل الابتهاج ص 168 (17) ابن الفاضي : درة الحال ج 1 ص 688 (18) نيل الابتهاج : 292 درة الحال 293 (19) نيل الابتهاج : 3، 6 (20) المهدى الوزانى : السيف المسلول باليد اليمنى ص 8 طبع حجر بنفاس

(21) ج 3 ص 23 (22) ج 3/ 21-22

ومقامات الحبيبى البصري .
والكشاف للزمخشري .
وتفسير ابن عطية الاندلسي .
واحكام عبد الحق الاشبيلي .
والجامع الكبير للسيوطى .
واحياء علوم الدين للفزالي وشرحه للشيخ مرتضى الزبيدي المصرى .

وكتاب سيبويه .
وديوان المتبنى .
والتسهيل لابن مالك .

وتحرير أصول الهندسة لأوقلينس تاليف النصير الطوسي ،

وتاريخ ابن خلدون .
ومختصر ابن الحاجب الفقهي .
وشامل بهرام .

والقاموس المحيط للفيروز بادي .
وتهذيب البرادعى لمدونة سحنون .
وكتاب التلقين للقاضى عبد الوهاب .

وقد كانت الكتب تصل الى المغرب بواسطة الرحالة من اهل العلم ، وخصوصاً الحجاج ، وبواسطة مبعوثين خصوصاً بين يبعثهم الملك الى اسبانيا ومصر واصطبغوا لاستيراد الكتب بصفة خاصة ، وتنضم من كتب الرحالة والرسائل الرسمية اخباراً مستفيدة في هذا الموضوع ، كما تتضمن كتب الترالج اسماء من ادخلوا كتاباً معينة الى المغرب لاول مرة .

كمدونة سحنون (24) والنواير ، والمحتصر لابن أبي زيد القيروانى (25) ومحتصر ابن الحاجب الفرعى (26) وشرح المراسى على الفية ابن مالك (27) ومحتصر خليل (28) وشامل بهرام ، وشرحه على المختصر ، وحواشى التفتزانت على العضد وابن ملال على ابن الحاجب ، (29) وشرح الخرشى على المختصر (20) .

ونكر في أول شرح الحدود عن كتب ابن عرفة : « أن البرز من فتهات الزمان من يفك رموزها ، ويفهم اشاراتها ، ويتفاخرون بذلك ! » (26) .

وقد سمي ابن غازى كتابه (اتحاف نوى النكاء والعرفة) بتكامل تقييد أبي الحسن وتحليل تعقيده ابن عرفة) .

وقال الفقيه المصرى المعاصر محمد سلام مذكور في رسالته (المقاصلة في فتهة الإسلامى) عن تعريف ابن عرفة للمقاصلة : وهذا التعريف المعد يشبه أن يكون نوعا من الرطانة ، ولا يكاد يفهم بدون ارشاد وايضاح ! (ص 9) .

أما من الناحية الفقهية فاما مة ابن عرفة ومكانته ليست عند المغاربة محل نقاش أو خلاف .

ولكنهم شنعوا عليه تحامله على شيخه ابن عبد السلام الهواري التونسي : قال الإمام المنساوي الفاسى في كتابه (صرف الأئمة ، إلى تحقيق معنى الذمة) بعدما أجاب عن اعتراض لابن عرفة على تعريف لشيخه ابن عبد السلام ما نصه : « وهذا ما لا يكاد يخفى على من دون الشيخ ابن عرفة من الأصغر ، فضلاً عن من هو منه من الأئمة الأكابر .

غير أن ولو عه - رحمة الله تعالى - بمناقشة شيخه المذكور ، في التقين والقطمير ، وشفقه بمضايقته والانتقاد عليه في الجليل والحقير ، كما هو معلوم من حاله لمطالعه كتابه ، ومتأمل مقاله ، غطى عليه سنتا اشراقه ، وأمر لديه حل مذاقه !

حيث الشيء يعمى ويصم

ما ذاك إلا لمضررات يعلمها العالم الرقيب !

وفي أجوبة الإمام أبي عبد الله القوري عن السبعة والعشرين سؤالاً الواردة عليه من تلميذه من صاحب المعيار : أن الناس لم يسلموا لابن عرفة من اعترافاته على ابن عبد السلام إلا القليل .

وما أحوجهما إلى وضع كتاب انصاف بينهما ، كما وضع بين الزمخشرى وابن المنير (27) .

بشير وابن شاش وابن الحاجب أفسدوا الفقه ويأمر أصحابه بالتحامى عنهم .

وقال احمد بابا السوداني في (نيل الابتهاج) : وينكر أنه لما حج اجتمع في تونس بابن عرفة فأوقفه ابن عرفة على ما كتب من مختصرة الفقهى ، وقد شرع في تأليفه ، فقال له القباب : ما جئت شيئاً ، لأنك لا يفهمه البنسى ، ولا يحتاج إليه المتنى ! ويقال أن كلامه هذا هو الحامل لابن عرفة على أن بسط العبارة في أواخر المختصر وبين الاختصار (23) .

وكان الفكر المغربي اذ ذاك لا زال لم يتسم بوعاء الاختصار المخل الوارد من الشرق .

ولا يؤثر فيما أردناه من أيراد هذه القصة ما جاء عبد الواحد الونشريشى بخط والده أبي العباس ، ونقله المقرى في (أزهار الرياض) من أنها لا رأس لها ولا ذنب قائلاً عن القباب : وحاشاه من ذلك ! (24)

فقد قال الونشريسى : إن بعض القاصرين من طلبة فاس يقولون عن مختصر ابن عرفة الفقهى : ما يقول شيئاً ! وان ملوك المغرب حبسوا بخزانتى القرويين والأندلسيين من مختصر ابن عرفة نسخاً عديدة ، ثم لا يرجع عليها للمطالعة أحد من طلبة الحضرة (فاس) شتاً ولا صيفاً (25) .

ومن الواضح أن انتقاد القباب في القصة منصب على ما في كلام ابن عرفة من تعقيد لا ينazuء فيه أحد ، حتى قبل أن ابن عرفة نفسه لم يفهم بعض عباراته ، مثل تعريفه للاجارة فقد ذكر الرصاص التونسي في (شرح حدود ابن عرفة) أنه وقف بخط بعض أشيائمه من تلاميذه ابن عرفة : أنه لما قرر ذلك اللفظ بمجلس ابن عرفة أشكك فهمه عليه وعلى أهل مجلسه ، فاقترب المجلس من غير جواب ، فلما كان من الغد ذكر الشيخ أنه اهتم غاية الاهتمام ، وأنه فكر في ذلك جالساً ومضطجعاً فلم يذكر من ذلك شيئاً ، قال : فنويت أن أصلى ركتين وارغب إليه تعالى في تيسير فهمه ، ثم فتح الله علي سبحانه بهم قوله : بعضه يتبع بعضها ! (من 393 طبع تونس)

ونقل عن الشيخ عيسى أن ابن عرفة في آخر عمره كان يصعب عليه فهم كلامه (ص 394)

(23) ص 73 (24) ج 3 ص 35 (25) نفس المصدر .

(26) ص 3 طبع تونس .

(27) رقم 194 د بالخزانة العامة بالرباط

الحافظ محمد بن عبد الملك البلبي الظاهري الشهيد
(ت 549هـ 1155م) (29).

استدرك عليه معاصره أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن طاهر الحسيني الفاسي المعروف بابن الصيفي (ت 608هـ 1222م) أحاديث كثيرة في أكثر الكتب، رأى أن عبد الحق انقلبها، وأنها أولى بالذكر مما ذكره عبد الحق في (الأحكام).

قال ابن عبد الملك المراكشي في (الذيل والتكلمة): «دل ذلك على حسن نظره وجودة اختياره» (30).

كما تصدى له الحافظ أبو الحسن ابن القطان على ابن محمد الكتامي الفاسي دفين سبطه (ت 628هـ 1223م) في كتابه الحفيظ: (بيان الوهم والإيمان، الواقعين في كتاب الأحكام) فانتقد عليه: أحاديث أوردها ولم يجد لها ابن القطان ذكرًا، أو عزماً إلى مواضع ليست فيها، أو ليست كما ذكر، وأحاديث أوردها على أنها متصلة وهي منقطعة – وذكر ابن القطان لانتقاطها عدة مدارك – وأحاديث أوردها على أنها موقوفة، وهي في المواضع التي نقلها منها مرفوعة! وأحاديث أغفل نسبتها إلى الموضع التي أخرجها منها. وأحاديث أوردها على أنها مرفوعة وهي موقوفة أو مشكوك في رفعها، وأحاديث أبعد النجعة في إيرادها ومتناولها أقرب، وأشیاء متفرقة تغيرت في نقله – أو بعده – عما هي عليه، ورواية تغيرت أنسابهم وأسماؤهم في نقله عما هي عليه.

قال ابن الزبير في (صلة الصلة) عن (بيان الوهم والإيمان): «وهو من أجل التأليف في بابه وإن كان لا يخلو من بعض تعسف وتحامل!» (31).

ونذكر ابن عبد الملك المراكشي في (الذيل والتكلمة) أن تصاضي فاس الحافظ ابن المواق: أبا عبد الله محمد بن يحيى (ت 642هـ 1244م) – له تعقيب على كتاب شيخه أبي الحسن ابن القطان: (بيان الوهم والإيمان) ظهر فيه ادراكه وبنبله، ومعرفته بصناعة الحديث واستقلاله بعلمه وائرافه على علله وأطرافه، وتنقيذه، وبراعة نقده واستدراركه.

ومن ذلك ما ورد في كتاب (بيان غربة الإسلام، على يد صنفي المتقدمة والمتفقرة في مصر والشام، وغيرهما من بلاد الاعجم) لعلي بن ميمون الغماري تزيل نركيا والشام ودفين لبنان، من كلام قاس جداً عن مؤلفي بلاد الشام في عهده، (504هـ 1105م) اتهمهم فيه بأنفسهم لا معرفة لهم بقواعد التأليف أصلاً، ولا بالصالح والفاسد منه، بل يعمدون إلى مطالعة الكتب، فيتقلون منها، على مقتضى فهمهم، ويقيدون ذلك، ولا يعرفون حقيقته وأصطلاحه، ولا ما ينتهي عن ذلك (28) أضرّبنا عن ذلك بنصه لطوله.

وقال الإمام المنساوي في (صرف الهمة) عن شرح أبي التونسي لصحيح مسلم: أنه شهير بعدم التحرير.

وقال عن شرح الرصاص التونسي لحدود ابن عرفة: وكم له في شرح الحدود من محلول الكلام وساقطه، كما لا يخفى على ناقده ومخالطه.

والله يعلم أنني لم أقل هنا هضماً، بل لافادة الطالب علماً.

وما على إذا ما قلت معتقدى
دع الجھول يظن الحق عدواً
ومن الفکامات التي يتذر بها في هذا المعنى، أن
فقيها مغرياً – لعله الشيخ بناني دخل القاهرة ودرس
بالازهر الشريف فوق علوه أقبال كبير، أثار حسد
شخص قليل الحباء، حسب التعبير المغربي فسأل الشيخ:
لماذا لم يُؤلف المغاربة كتاب دراسية خاصة بهم، ويقولوا
عالمة على مؤلفات المشارقة فاستفز الغضب الشديد المغربي
وأجاب: شغلهم اصلاح أخطائهم عن التفرغ لتأليف
كتب خاصة بهم.

والواقع إن ما قلناه عن وحدة الكتاب العربي
وتكميله جعلت كثيراً من الكتب غير المغربية لا تتم
الاستفادة منها إلا بضميمة الكتاب المغربي إليها.

فهذا مثلاً – كتاب (الأحكام) في الحديث، لعبد
الحق ابن الخراط الأشبيلي دفين بجاية (585هـ - 1185م)
الذي بناء على (كتاب المقتحب المتقد) لصاحبه ومفیده

(28) رقم 2123 ك بالخزانة العامة بالرباط

(29) ابن البار : التكلمة ج 1 رقم 162 .

(30) جزء الغربا، 98-97 ، (31) ص 132 طبع الرباط

ادرار الشروق ، على أنواع الفروق) قائلًا عن القرافي : (انه ما استكمل التصوير والتفصي ، وما استعمل التهذيب والترتيب) فوضع ابن الشاطئ كتابه مصححا لما اشتمل عليه كتاب القرافي من الصواب ومنقحا لما عدل به عن صواب ~ (36)

وقد تلقى المالكية تعقيبات ابن الشاطئ بالقبول ، حتى قالوا : عليك بخروف القوافي ولا تقبل منها الا ما قبله ابن الشاطئ ! كما عند الشيخ الامير المصري المقربى الاصل فى حواشيه (ضوء الشموع) على شرحه لكتابه (المجموع) فى الفقه المالكى (37) .

وقال أبو سالم العياشى فى رحلته : إن ذلك من المستفيض عند المتأخرین (38) .

وهذا مختصر خليل المصري الذى فتن المغاربة فتن شديدة ، حتى انهم جعلوه أحزايا كما حزب المسلمين كتاب الله ، وجعلوا محارب جامع القرويين محلًا ينطلق حوله من يستظهرون مختصر خليل ، فيتلون منه قدراً معيناً كل يوم ، كما يفعل من يستظهرون (كتاب الله) ! بل ان الراتب الشهري لمن يتلون حزب المختصر كـ ان يفوق راتب من يتلون حزب القرآن عشرين ضعفاً !

ولكنهم لاحظوا عليه : انه لفطر الایجاز كاد ان يعد من جملة الالغاز (39) فوضعوا عليه عشرات الشروح والحواشى والتعاليم ونماهيك بالشرح الحفيلى على معاملاته للقيقه الكبير ابى على ابن رحال ، فى حوالي عشرين مجلداً ، أما العبادات فقد اكتفى عن شرحها بشرح الخطاب المالكى .

وترجم (المختصر) الى الشلحة محمد بن على الهوزلى وشرح الترجمة بالشلحة ايضاً لحسن بن مبارك التمنتى البوعيقى .

ونظم (المختصر) بالعربية أبو القاسم الفيجيجى فى (نظم الآلى الحسان) (40) .

وكذلك اعنى المغاربة باستيراد ما وضع على

قال ابن عبد الملاك : « وقد عنيت بـ (الجمع بين مدين الكتابين) مضاريف إلى سائر أحاديث (الأحكام) وعلى ترتيبها . (وتكميل ما نقص منها) فصار (كتابي هذا) من أنفع المصنفات وأغزرها فائدة ، حتى لو قلت : انه لم يرُف في بابه مثله لن أبعد ! (32) .

وسما الحافظ ابن رشيد الفهرى السبتي دفين فاس (ت 1321 م - 222 م) في رحلته المفيلة (ملة البيبة) كتاب ابن المواق : (كتاب المآخذ الحمال ، عن مآخذ الأغالى فى شرح ما تضمنه كتاب بيان الوهم واليهام من الأخلاص والأغالى ، وما انصاف إليه من تنعيم واكمال) .

وقال : إن المؤلف تولى اخراج بعضه من البيضة ، ثم اختبرته النية ، ولم يبلغ من تكميله الأمانة ، قال ابن رشيد : فتوilih تكميل تخرجه ، مع زيادة تتمات ، وكتابة ما تركه المؤلف بياضاً (33) .

ولكنا مع الاسف لم يصلنا ، لا كتاب ابن الصيقيل ولا كتاب ابن المواق ، ولا كتاب ابن عبد الملاك ، ولا كتاب ابن رشيد ! وتلك صورة من نكبات المكتبة الغربية ..

وهذا كتاب جمع الجواجم في الحديث للسيوطى المعروف بالجامع الكبير ، الذى قصد مؤلفه به استيعاب الأحاديث النبوية ، كما قال في خطبته ، ذكر الشيخ مرتضى الزبيدى في معجم شيوخه أن مجيزه الحافظ أبا العلاء أديريس العراقي الفاسى (ت 183 م أو 84 م) 1769 - 71 م لما قرأ الجامع الكبير استدرك عليه نحو عشرة آلاف حديث كان يقيدها في طرة نسخته ، بحيث لو نقل ذلك في كتاب جاء مجلداً (34) .

وهذا كتاب (انور البروق في أنواع الفروق) لشهاب الدين القرافي الصنهاجى المصرى ، الذى يعتبر أمم كتاب وصل اليتنا في القواعد والفرق في المذهب المالكى والذى قال عنه ابن فردون في الدبياج : انه لم يسبق إلى مثله ، ولا أتى أحد بعده بشبهه (35) .

تصدى له أبو القاسم ابن الشاطئ السبتي في كتاب

(32) جزء القراء، 147-148

ونقله أبو سالم العياشى في رحلته (ما الموارد) ج 2 ص 248-249 .

(34) فهرس الفهارس ج 2 ص 201 الاسكوريال ونقله أبو سالم العياشى في (رحلته) ج 2

(35) ص 64 (36) ص 3-4

(37) ج 1 ص 377 (38) ج 2 ص 270 (39) محمد الطالب ابن الحاج : الإزهار الطيبة النشر في ذكر المبادى، العشر ص 179 (40) محمد المنونى : مكتبة الزاوية الحمزاوية ص 31

كما وضع كل من الشيختين التاودى ابن سودة و محمد بن الحسن بناني حواشى على شرح الزرقانى ، الذى قال عنه : انه كثيرا ما ينزل النقل فى غير مطه ، ويحلق الفرع بغير أصله (43) .

ثم وضع الشيخ الروهونى حاشيته على كل من المختصر و شرح الزرقانى و حاشية بناني.

قال الشيخ الطالب ابن الحاج فى كتاب (الاذمار الطيبة النشر) : ولعمرى ان لا من هذه الحواشى الثلاثة قد اتى صاحبها فيها من التحريرات بالعجب العجاب ، وذلك مما لم يسهل للأكابر من المسائل اطلاع (44) .

ومكذا صار كلام بناني والروهونى هو القول انفصل فى تحرير الذهب المالكى بحيث اذا نص خليل على حكم فقهى فى مختصره الذى قال انه مبين لما به الفتوى ، ووافقه عليه الزرقانى تبعا لشيخه الاجهورى ، فإنه لا يكون فقهها مسلما الا اذا اقره بناني والروهونى ولو بالسكتوت ، أما اذا اعتبره فلا عبرة بكلام خليل والزرقانى !

ولا عجب فى ذلك ، فقد عنى المغاربة بالدراسات الفقهية القانونية عناية فائقة ، قرون عديدة ، اذ كانت فاس تمثل المركز السائى من مراكز الدراسات المالكية ويشمل نفوذها التقانى المغاربة الاوسط والاقصى ، كما عند مؤرخ الذهب المالكى محمد مخلوف التونسي فى (شجرة النور الزكية) (45) ولا يخفى انه يقصد بالمغرب الاقصى ما يشمل الاقاليم السونانية .

وكلمة فقيه - عند المغاربة - تطلق على من يعرف القراءة والكتابة ، وعلى المعلم ، والمدرس ، والموثق ، وأمام المصلحة ، والمحتسب ، والمفتى ، والقاضى ، والسفير ، والوزير ، ولا يفوقها من الفاظ التنظيم والاحترام عندهم الا كلمة شيخ ، لتنقال لشيخ الجماعة ولشيخ التربية الصوفية ، وكلمة شريف التى تطلق على من كان من مال البيت النبوى .

ولعل اليidan الفقهي القانونى باقسامه المختلفة ، وفروعه المتعددة ، هو امم ميدان تفوق فيه الكتاب المغاربة تفوقا كبيرا لا من ناحية كثرة المؤلفات التى تفوق الحصر

(المختصر) من شروح وحواشى خارج المغرب وتعقبهما هي الأخرى .

فابن غازى اهتم فى كتابه (شفاء الغليل . بحل مقفل خليل) ببيان أغلاط بهرام المصرى فى شرحه على المختصر .

وابن عاشر ياتى فى (حاشيته على الشرح الصغير للكتاب المصرى) فى الانكار عليه .

وقال أبو العباس الهلالى فى (شرحه لخطبة المختصر) : ومن الكتب التى لا يعتمد على ما انفرد به شرح العلامة الشهير الشيخ على الاجهورى على المختصر ، كما ذكره تلميذه العلامة النقاد ابو سالم عبد الله العياشى فى تاليفه (القول المحكم ، فى عقود الاصم الابكم) وأشار الى ذلك فى (رحلته) (46) .

ومن مارس الشرح المذكور ، وقف على صحة ما قاله تلميذه المذكور

ثم قال انهلى : وما قيل فيه يقال فى شرح تلامذته واتباعه من المشارقة كالشيخ عبد الباقى الزرقانى ، والشيخ ابراهيم الشبرخيتى والشيخ محمد الخرشى لأنهم يقلدونه غالبا .

هذا مع أن الشيخ عليا رحمه الله حرر كثيرا من المسائل أتم تحرير ، وقررها أوضح تقرير ، وحصل كثيرا من النقول احسن تحصيل ، وفصل مجلات ابين تفصيل ... فشرحه كثير الفوائد لمن ميز حصيده من دره ، ولا يطويه على غره !

وقد سئلت بالجامع الازهر من القاهرة عن شرح تلميذه الشيخ عبد الباقى الزرقانى فقيل لي : ما رأيك فيه ؟ فقلت لهم : لا ينبغي للطالب ان يترك مطالعته لكثرة فوائده ، ولا ان يقلده فى كل ما يقول او ينقل لكثرة الغلط فى مقامده (47) اتى كلام الهلالى مختصرا .

وقد وضع كل من أبي على ابن رحال ، والسلطان المولى سليمان ، والفقىء ابن عبد الرحمن والمهدى ابن سودة ، ويدر الدين الحمومى والمهدى ابن الحاج حواشى على شرح الخرشى .

(41) ج 2 ص 373 نقلا عن شيخه أبي بكر السكتانى المراكشى

(42) ص 7 الملة 10 طبع جبر بناس

(43) هامش شرح الزرقانى ج 1 ص 2 .

(44) ص 180 (45) ص 103 .

فقط ، ولكن من ناحية الكيف أيضا .

فقد عرف الكتاب الفقهي المغربي - في الغالب - بالتحرى في النقل ، والتعقق في البحث ، والاصالة في التفكير ، والامتنام بمشاكل الحياة الواقعية ومحاولته إيجاد الحلول العملية المناسبة لها .

ون تلك في نطاق المذهب المالكي التي اختاره المغاربة لأنفسهم مذهبا ، والتزموا وتعصبا له ، وجمدوا عليه . ولم يسمحوا لغيره من المذاهب الفقهية الإسلامية بترجمة معه ، وتأثروا به في حياتهم وسلوكياتهم وتفكيرهم ، مما كان له آثاره المختلفة التي لا مجال للحديث عنها الآن .

ولم يكتف المغاربة بهذه الموسوعات الفقهية الكبرى ذات الجلadas الضخمة الجديدة والتي يحاول أصحابها فيها أن يستقصوا أحكام جميع المسائل الفقهية سواء كانت واقعية أو مفروضة . مع ايراد نصوص الاقديمين وأختلافات الشارحين في فهمها ، والترجح بين الفهوم المختلفة .

بل انهم - إلى جانب ذلك - اهتموا بالكتب التي تلتزم المسائل العملية الكثيرة الواقع، ومن ذلك - شروح رجزية ابن عاصم الاندلسي (تحفة الحكم) كميارة ، وابن سودة ، والتسلولي الفاسقين ، وغيرهم . ويمتاز شرح ميسارة بالتحrir وإيراد نصوص الاقديمين ، الامر الذي يكسب الطالب ألفة لتعابير الاقديمين واصطلاحاتهم ، ويسهل عليه وبالتالي الاستفادة من أهميات الكتب الفقهية .

ويمتاز شرح ابن سودة بالاختصار والتحرير والاعتماد على آخر ما استقر عليه رأي فقهاء المالكية ، مما جعله كتاب نراسة في القرويين والزيتونة بتونس وغيرهما .

ويمتاز شرح التسلولي بالتحرير والامتنام بالنوازل الواقعية والتوضيح في الموضوع من غير إفراط . ومن الموسوعات الفقهية التي برع فيها الكتاب المغربي تبريزا فائقا موضوع (النوازل) أو (الفتاوى) أو (الاجوبة) فقد كان ملوك المغرب - مع أن الكثير منهم كان من كبار الفقهاء - يستفتون الفقهاء فيما يعرض لهم من مشاكل ويلتزمون ما يقتضى به الفقهاء .

واستفنته ملوك الدولة العلوية الفقهاء في مشاكل السياسة الداخلية والخارجية واحتجاجهم بفتاوی الفقهاء في مفاوضاتهم الدبلوماسية مما سارت بمحبيه الركبان . كما كان بجانب القاضي مفت خاص يعين رسميا بظاهر سلطاني يستشيره القاضي في النوازل المهمة ، كما يستفتنه الناس في شؤونهم الدينية ، وكانت له بالقرويين مقصورة خاصة ، كما ان بها مقصورة للقاضي ، ومقصورة للخطيب وغريفة للموقت .

وذلك كان المتذاعون يستفتون الفقهاء في نوازلهم ، ويبلغون بهذه الفتوى للمحكمة لبيان أحقيتهم ما يدعون . ومع مرور الأيام يجتمع الفقيه عدد من الاجوبية الصادرة عنه ، فتارة يجمعها بنفسه في كتاب خاص ، وتارة يجمعها غيره من تلاميذه أو أولاده .

ومن ذلك مثلا كتاب (الدر الثثير) ، في أجوبة أبي الحسن الصفيري) و (الاجوبة الكبرى) و (الصغير) لابن السعواد الفاسي (وأجوبة) المستاوي ، وابن سودة ، والمجاطي ، والناعماني وبريلة ، وابن هلال ، والعبياسي ، وجنون ، وغيرهم .

وفي بعض الاحيان لا يقتصر الجامع على أجوبة فرد واحد ، بل يتضمن لجمع أجوبة كثير من الفقهاء المالكية على اختلاف بلدانهم وعصورهم .

ومن أشهر هذه المجموعات وأهمها وأفدها كتاب (المعيار) للونشريشي التلمساني نزيل فاس وعالها ومدرسيها ومتقنيها ، فقد وقف بفاس في مكتبة العلامة القاضي محمد بن الغريبي على فتاوى فاس والأندلس ، وكانت مكتبه محتوية على تصانيف الفنون فاستعان بها الونشريسي في تأليف (المعيار) . كما في فهرسة المنجور ، ونقله احمد بابا في (نيل الابتهاج) (46) .

ومثل (النوازل الصغير) و (النوازل الكبرى) المعروفة بالمعيار الجديد . للوزاني مفتى فاس .

هذا الى جانب عدد كبير من مخطوطات الفتاوى والنوازل ، من القسمين السابعين التي تزخر بها المكتبات المغربية وما زالت لم تطبع بعد .

ولعل الناحية الطريفة لكتاب المغربي في اليدان الفقهي التي انفرد بها دون بقية الاقطار الاسلامية الأخرى .

في الخلاف بين مالك وابي حنيفة والشافعى ، لابى محمد الاصيلى نزيل الاندلس (ت 372هـ)

ومثل كتاب (تهذيب الممالك فى نصرة مذهب مالك) تأليف يوسف ابن دقناش الفنلادى - من ناحية فاس - نزيل دمشق ودفنتها ، الشهيد فى الدفاع عنها عندما

ما جمها الصليبيون سنة 543هـ فى قصة رائعة اوردها ياقوت فى معجم البلدان (48) عن ابن عساكر .

وقد أشار الفنلادى فى خطبة كتابه الى طول بعض المؤلفات فى هذا الموضوع ، وعدم انصاف مؤلفيها ، قائلا : « وقلما تجد فى هذا الشأن منصفا ، أو خصما بالحق معترا » ، فالكتاب « موجزا مختصرا ، اودعه أسرارا عجيبة ، وذكر ما لنا وما علينا ، معرا من اللجج ، مؤكدا بواضحة الحجج ، على منهج العدل والانصاف فيما بيننا وبين أصحاب الخلاف : أبي حنيفة والشافعى » حسب تعبيره ، ويقع فى 130 ورقة .

ومن ذلك كتب فقه الحديث ، مثل كتاب المهد الكبير الجامع لماعنى السنن والاحكام ، وما تضمنه موطا مالك من الفقه والآثار ، وذكر الرواة البررة الاخيار ، وكل ذلك على سبيل الايجاز والاختصار ، تأليف أبيى على بن الزهراء عمر بن على العثماني الورياغلى من بنى عمران من أهل القرن الثامن للهجرة .

ويقع فى واحدة وخمسين مجلدا كبارا ، لم يبق منها الا عشرة اجزاء مفرقة فى القرويين والخزانة العامة بالرياط ومكتبة القصر الالكى ومكتبة ابن يوسف بمراكن ومكانس والزاوية العزاوية .

ونذلك مثل آخر من نكبات المكتبة المغربية التى أشرنا إليها فى أول هذا الحديث .

هذا - ولم يكن تفوق الكتاب المغربي فى الميدان الفقهي قاصرا على الفقه الاسلامى وحده ، بل انه تعداد الى الفقه اليهودى ايضا .

فهذا اسحاق بن يعقوب الكومن المعروف عند فقهاء اليهود بالفاسى ، الذى ولد بقعة سلاس بالقرب من فاس اوائل القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى

هي هذه الكتب التى تتضمن ما جرى به العمل فى المغرب ، مرتبًا على أبواب المعاملات الفقهية ، مثل (نظم العمل المطلق) وشرحه للسجلماسى الرباطى ، و (نظم العمل الفاسى) لابى زيد الفاسى ، وشرحه للناظم ، والسجلماسى ، وابيعمرى ، والوزانى ، وجنسون ، وغيرهم .

فمنذ سجن فقهاء المسلمين أنفسهم داخل مذهب واحد لا يتعدونه ، واجتتهم مشكلة تعدد الأقوال فى المذهب الواحد ، فحاولوا التغلب عليها باعتماد القول الراجح او المشهور ولكن هذا الراجح او المشهور قد يعارضه مرجع آخر ، كان يكون فيه حرج ومشقة على الناس أو يخالف اعرافهم وما اعتادوه ، فيلجأ الفقهاء لمخالفة المشهور أو الراجح ، ويستندون الى قول آخر ضعيف ، فيصبح بجريان العمل به أقوى من الراجح أو المشهور .

وهي حيلة بارعة للتخفيف من وطأة الحلقة الحديدية الخانقة التى وضعوها فى أعنفهم عندما أغلقوا باب الاجتهاد وسجنتوا أنفسهم فى ققص تقليد مذهب واحد لا يتعدونه ، كما أنها من أفيد الوسائل فى تطوير الاحكام الاجتهادية .

ومع أن جمهور الفقهاء ياخذون بمبدأ الارتباط بين أحكام المعاملات وأعراض الناس ، فإننا لا نعرف عن غير المغاربة أنهم توسعوا فى ذلك إلى الحد الذى ذكرناه . ونذلك مظهر من مظاهر واقعية التفكير الفقهي عند المغاربة ، مما جعلهم يجدون الطول الاسلامية لكثير من المشاكل المستعصية ، كما فعلوا - مثلا - فى مشكلة السلف بدون فائدة ، حيث كانت بقيسارية فاس دراما موقفة للسلف . كما عند الشيخ التاوى ابن سودة فى (شرح التحفة) (47) وهي سابقة تاريخية تفتح آفاقا فسيحانا التفكير من جديد فى حل اسلامى صيم لا عوص مشكلة تواجه النظام الاقتصادى الاسلامى فى العصر الحاضر .

على أن الكتاب الفقهي المغربي لم يقتصر على الناحية الواقعية العملية وحدها بل اهتم كذلك بالناحية النظرية أيضا .

ومن ذلك الفقه المقارن ، مثل كتاب (الآثار والدلائل)

ودخلت في صميم التراث العربي العام . ويكتفى أن أشير إلى قول صاحب (كشف الظنون) عن (كتاب جامع المباص والغایات في علم المیقات) لابس على الحسن المراكشي - وقد قدمنا ذكره - : وهو أعظم ما صنف في هذا الفن ! (50) .

ويوجد إلى جانب تلك الكتب كتب مغربية بربعتين في ميادينا تبريراً فائقاً ، ولم تتبادر لها الفرصة المناسبة لتنشر خارج المغرب وتقدر هناك التقدير اللائق بها . ولكن المجال الضيق لهذا الحديث لا يسمح بالتوسيع في هذا الموضوع .

ولكنا قدمنا إلى تجليات هذه الناحية الفقهية بصفة خاصة . لتفت انتظار إلى ما امتازت به المقلية المغربية من التبرير في ميدان التفكير القانوني ، وما ينتظر منها من السامية المنتجة في نهضة الفقه الإسلامي الحديثة في جامعات مصر وسوريا ولبنان والعراق عندما تتحرر البلاد من احتلال القوانين الأجنبية التي وضعها أعداء البلاد أثناء فترة الاحتلال الاجنبي البغيض ، في نطاق المخطط الاستعماري الاجرامي لقطع صلة الأمة بدينها القويم وماضيها المجيد ، وحضارتها وثقافتها وروابطها الفكرية المتينة مع بقية القطرات العربية ومحو شخصيتها وثمينات الاغلال التي تمسك بخناقها في حضيض الاستعمار الروحي ، وعار الاحتلال الفكري ، وخزي التبعية الثقافية .

فمع ما في بقاء هذه القوانين الأجنبية من اهانة لlama ودوس لكرامتها الوطنية فإن أمة لها هذا التراث الفقهي الضخم والملاصق القانوني للمجيد ، لا يجوز أن تقطع حلتها بهذا الماضي المشرق الوضاء وتصبح عالة على أعدائها في فقه يرجع في أصله إلى الوثنية الرومانية وقد طبعته المسيحية والالحاد اللذان سيطرا على فرنسا في حقبتين مختلفتين بطبعهما الخاص .

هذا الذي أنه لا يتصل بحياة الأمة وعقليتها وطبيعتها وحضارتها .

وقد سبق لرائد الفكر الإسلامي الحديث الاستاذ الإمام الشیخ محمد عبد رحمن الله أن نبه إلى الصلة التي يجب أن تكون بين ما يشرع لlama من قوانين وبين

ودرس في القبروان ، ثم رجع إلى فاس ، فانكب على دراسة التلمود وشروحه ووضع في فقه التلمود كتاباً يقع في عشرین مجلداً استندت به فقهاء اليهود عن الالتجاء إلى مختلف الدراسات الأخرى المتعلقة بالتلمود وشروحه حتى اعتبره بعضهم بمنزلة تلمود ثان .

وخلف آنذاك مجموعة من الفتاوى باللغة العربية تستعمل على ثلاثمائة وعشرين فتوى .

وقد ترجمها إلى العبرانية ابراهيم هاليوي أبو قراط . ولا زال بعضها موجوداً بالعبرانية إلى الآن . كما كتب باللغة العربية كتاباً مطولاً يتعلق بثلاث نقاط فقهية موجودة في التلمود .

وفي الرابع الأخير من القرن الخامس الهجري الحادى عشر الميلادي ذهب الفاسي إلى الاندلس حيث أقام في قرطبة ثم في غرناطة ، وأخيراً استقر في اليوسلينة من أعمال قرطبة حيث أسس هناك مهداً للدراسات العليا التلمودية اشتهر اشتهرأ كبيراً ، وأمه الطلاب من كل الجهات ، وبقي هناك إلى أن توفي أو آخر القرن الخامس هـ أوائل الثاني عشر م .

ولا يزال الفاسي إلى يومنا هذا معتبراً من أعظم الفقهاء المعتمدين لدى اليهود كما يتجلى ذلك بوضوح في كتاب (المقارنات والمقابلات) لمحمد صبرى ، وهو الذي ثفت نظرى إليه . وفي كتاب (العلم عند العرب ، وأثره على تطور العلم العالمي) للعالم الإيطالى الدو ميللى .

حديث عنه (49) ثم كتب لي بتفصيل خبره أبستان يهونى من قسماء طلبتي بكلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط .

وئس مني هذه الفذلقة المختزلة المبتسرة عن تبرير الكتاب المغربي في الميدان الفقهي القانوني أن الكتاب المغربي كتاب فقه ليس الا ، فمع ما للميدان الفقهي من أهمية بالغة وقيمة كبيرة في تنظيم حياة الأمة وحفظ حقوق أفرادها فانتأنا قد قدمنا أن الكتاب المغربي ساهم في سائر الميادين التي شام فيها الكتاب العربي . وقدمنا أسماء طائفة من الكتب المغربية في موضوعات مختلفة تجاوزت في القديم والحديث النطاق المحن

(49) ص 308

(50) ج 1 ضلع 572 طبع استنبول 1360 هـ 1941 م

قال الرحالة التونسي الشيخ محمد بيرم في (صفوة الاعتبار) (٥٢٢) : ولعمري أن صناعة الأنشاء في الدولة باللغة العربية كانت الآن أن تكون مقصورة على نوله مراكش . وأما غيرها من النول العربية فقد تبنيناها ، وكانت كتابتهم أن تخرج عن الأسلوب العربي ، بل صاروا لا يتحاشون عن اللحن والكلمات البربرية ، بخلاف كتاب المغرب ، وهذا يدينهم من قبيم .

الزخرفة في الكتاب المغربي :

وكما أنتم المغاربة بموضوع الكتاب ، فقد امتهنا كذلك بمظهر الكتاب ، فكان لهم فن جميل خاص فيما يتعلق بنسخ الكتب وزخرفتها ، وتزيينها بالصور أحياناً وبالأشكال الهندسية والذهب والألوان سواء في صلب الكتاب ، وهوامشه ، وأطرافه أو في تسفيره .

ففي مكتبة القصر الملكي بالرباط قطعة من كتاب في البيطرة لمؤلف مجهول . لا أول لها ولا آخر وهي بخط مغربي جميل ملون . وفيها أربع صور :

١) تمثل فرسا بيضاء ، ملجمة . وسائسها فاتح فمها يقلب أسنانها .

٢) تمثل فرسا قهوية اللون بيضاء الأطراف ، مربوطة من حافرها الأول اليمين .

٣) تمثل فرسا بها برص

٤) تمثل حصاناً قد أقفز على حجرة وراسها في يد سائسها ، وهي مشكلة الأربع ، وقد قبلت الفحل ولم تنفر منه أصلاً . - والمبارات في وصف هذه الصورة الرابعة المؤلف -

قال المؤلف : ويكون ورائها في الورقة التي تلى هذه الورقة ، وهي تواجهها .

ولكن هذه الورقة التي أحال عليها غير موجودة في هذه القطعة ، وهي تحت رقم ٥٢٢كم .

ومن هنا الكتاب أيضاً قطعة أخرى فيها صورتان ملوتان جميلتان :

تمثل أحدامها فرسا دماء أدخل بيطار في

احوال الأمة وطبائعها وعاداتها وآخلاقها ، فرب قانون يلائم مصالح قوم لا يلائم مصالح آخرين فينفع أولئك ويضر بهؤلاء .

ونحن - وإن كنا من غلاة المتطرفين في الدعوة إلى الاجتهاد والاستقلال في التفكير ومسايرة التطور والتجديد ، والاستفادة من تجارب الأمم المتقدمة في ميادين التنظيم والتسيير ، ومحاربة الجمود والتقليد والتعصب المذهبي ، ونعتبر ذلك شرطاً أساسياً للابتعاد الإسلامي المنشود ، والقضاء على الرجعية والامية والتخلف الفكري والكتل العقلي - فإننا نريد تجديداً إسلامياً في نطاق الإسلام وفي ذاته ، لا تقليداً كفرياً أجنبياً ، ومعاذ الله أن ننكر الجمود على ما قاله الآئمة السابقون ونقبل الجمود على ما شرعه الأعداء الكافرون المستعمرون .

على أنه مما لا مجال للجدال فيه أن فقهنا في حاجة إلى تقوين ، وإلى كتب جديدة يضعها فقهاء متخصصون في دراسة الشريعة الإسلامية ، متبحرون في معرفة مصادرها وأصولها ومذاهبها ، متعمقون في أسرارها وحكمها وفلسفتها يعرضونه بلهجة العصر وأسلوبه وعقليته وروحه ويواجهون حاجياته المستجدة ، بعد أن لم تبق الكتب القديمة صالحة لسد هذا الفراغ .

ولنعد إلى موضوع الكتاب المغربي فنقول : إن من الحق أن هناك كتاباً مغربياً لا ينطبق عليها ما قلناه عن الكتاب الفقهي ، من أن الغالب عليه التحرير ، والتحرى في النقل والتعمق في البحث والاصالة في التفكير ومن ذلك مثلاً كتب المناقب والفضائل والغيبيات وما أشبهها ، فإن الغالب على الكتاب المغربي فيها التسامل وعدم الاهتمام بالتحرى والنقد والتحميس ولو كان مؤلفه من كبار الأعلام .

على أن من الحق كذلك أن نقول أن ذلك ليس من خواص الكتاب المغربي وحده ، بل هي ظاهرة عامة في الكتاب العربي في هذه الموضوعات ذي الأغلب الأعم .

وقد كان من آثار حفظ الله للمغرب من الاحتلال التركي أن بقيت حالة اللغة العربية في المغرب سليمة فلم تصب بما أصبت به في بقية البلاد العربية الأخرى .

الاسلامي ومدارسه) عن هذه القصة على انها اندلسية ، وقال انها من القرن اثنامن الهجري للميلاد (53) .

وفي كتاب (العز والذافع ، للمجامدين بالمدانع) الذي ألفه بالاسبانية ابراهيم بن احمد بن غانم بن محمد ابن زكريا الاندلسي وترجمه عن الاسبانية ترجمان السلطان زيدان السعدي وأولاده احمد بن قاسم بن احمد ابن قاسم الحجري . حوالي ثمانين صورة تتضمن جميع اشكال المدافع والآلات الحروب القديمة على اختلاف انواعها .

ويوجد بخط مؤلفه في الخزانة العامة بالرباط (54) وفي تركيا ، وفي دار الكتب المصرية ، ومنه نسخة في مكتبة القصر الملكي بالرباط (55) وكانت توجد منه نسخة بـ^{لـ}فرويين ولكنها ضاعت .

ومما الكتاب هو أول كتاب ترجم للعربية في الموضوع ومنه تعلم ملك تونس أعمال المدفع والبارود والآلات الحرب .

ونذكر احمد تيمور في كتاب (التصوير عند العرب) أن عنده (نزمه المشتاق) للشريف الادريسي وبه صورات كثيرة (56) .

وبناءً في مول يوم القيمة منقوله من ذخيرة المحتاج) مغربية الخط بها صورة خيالية لجهن وأدبيتها وهي بالحمراء والسودان (57) .

قال : ولا يذهب عن الدمن تصوير الحرمين في ثلاثة الخيرات . وما امتازت به بعض نسخها من الاتقان في الزخرفة والتذهيب وقد أطعنا على نسخ منها مشرقية ومغربية غربية الصناعة ، باللغة النهاية في جودة التصوير والنقوش (58) .

وفي الخزانة العامة أزيد من خمس نسخ من جزء (ذخيرة المحتاج) عن المراج الحسى وفيه صورة سدرة المتنبى ، وقلم القدرة النوراني - واللوح المحفوظ الريانى ، وصورة الجنان (59) .

هذا ما يتعلّق بالتصوير في الكتاب المغربي . وطبع في مجتمع يهتم بالعلم والدرس وليس به مطابع ولا آلات للكتابة ، ان تزدهر النساخة بين الطلبة والعلماء والمتلقين .

رحمها متانة وهو ينفح فيها . ويمسك بليجامها رجل جالس على مصطبة من جلد .

وتمثل الثانية حسانا أبيض يسقيه بيطار دواه في قرن بقرى طويل . وقد ارتفع البيطار فوق دكة ليصل إلى فم الحسان والبيطار يرتقى قميصا مغريا وذراعه مغربية غوفها كسام مخطط ، وفوق رأسه عمامة مغربية ، وهي تحت رقم 1016 IOI .

وأخبرني كتبى أنه كان يملك عدة كاريئيس من مخطوط مغربي في البيطرة يرجع تاريخ نسخه إلى حوالي أربعة قرون . وفيه صور كثيرة للخيول في أوضاع واشكال مختلفة .

كما أخبرنى الاستاذ المنوني انه يملك نسخة من كلية ودمنة في حجم كبير بخط مغربي ردى مجلد مليون كتب تلباشا سعيد بن العياشى ابن عبد السلام ، وبها ثمان صور غير متقنة لحيوانات .

وكان المستعرب الإيطالي ليفي دلافيلا قد أوقفنى في منزله بروما صيف 1959م على قطعة من قصة مصورة بعنوان (بياض ورياض) قائلاً أنها المصور المغربي الوحيد بمكتبة الفاتيكان وهي قصة شاب اسمه بياض ، من أسرة كريمة من دمشق ساح في البلاد وقابل فتاة اسمها رياض على شاطئ نهر يسمى طرطرا فهام بها وأصابته محن وحرمان ، ويتضمن النص الاشارة إلى ثلاث عشرة صورة ، حيث يذكر في كل موضع عنوان الصورة التي تمثل منظر الحائنة التي يوردها ولكن لا يوجد بالنص الآن إلا تسع صور وتعتبر الأربع الأخرى ضائعة .

وقد نشرت الجمعية الاسبانية الامريكية هذه القصة مصورة عن الأصل الموجود بالفاتيكان بخطه المغربي الجميل . في مطبعة جريدة الهوى اليومية الامريكية في نيويورك مع ترجمة اسبانية بقلم الدكتور أ.ر. نيكل سنة 1941 .

ثم اثنى وقفت في كتاب (الفن والفنانون المسلمين) لانطونيو غارسيا خاين على ثلاث صور من القصة المذكورة قائلاً أنها قصة اسبانية (52) .

وتحديث الدكتور جمال محرز في كتابه (التصوير

(52) ص 48-49 (53) ص 43-44 (54) رقم ج 85 (55) رقم م 2646 (56) ص 45 (57) ص 45 (58) ص 59

(59) الارقام 2764 ، 2768 ، 2776 ، 510 ، 518 ، ج 18

(القرطاسن) انه كان منها بفاس او اخر القرن 6 اوائل 67هـ ، او اخر 22 اوائل 3 تم اريعائة حجر (61) فقد كانت صناعة نسخ الكتب صناعة رائجة يتعيش منها اقوام لهم خطوط جديدة ويحسنون تزويق الكتب وتذميمها وزخرفتها او يكلون التزويق الى من يحسنـه . وكان بالقصر الملكي موظفون خاصون بالنسخ والتزويق .

وكان من كبار العلماء من لهم خطوط جميلة ويحتزرون صناعة نسخ الكتب يتعيشون منها وكان الناس يتغالون في شراء ما ينسخه مؤلاه العلماء من كتب ، لأنهم عرفا بتحريرهم تصحيح ما ينسخون .

بل كان الملوك والامراء والرؤساء والاغنياء يعتنون بنسخ المصاحف وكتب الحديث والسيرة النبوية ، ويباشرون في زخرفتها تقربا الى الله ، وتخليدا لاسمهم ومنهم من كان يوقفها على مكتبات المساجد ، وخصوصا الحرمين الشريفين والمسجد القصى كما هو معلوم .

وفي مكتبة ابن يوسف بمراكنش شذرات من مصحف على رق الغزال تحت رقم 433 كتبها سنة 604 عمر الرتضي آخر ملوك الموحدين في عشرة أجزاء ، وفي آخر الجزء الخامس صفحات مكتوبان بالذهب محاطتان باطار الذهب ، وبعدهما لوحة مذهبة ملونة ، وتوجد منه قطع بمتحف الاودية بالرباط .

وقد تحدث المؤرخون المغاربة والمشارقة من قدماء ومحثثين ، كابن خلدون والخطيب ابن مرزوق ، والمقريزي وابن نباتة والناصرى ومخلص والمنونى عن مصاحف أبي احسان المرينى الثلاثية التي كتبها بيده في رق الغزال ، بمداد من فتيت المسك وعطر الورد ، وربما أضيف إليها في بعض الأحيان الزغفران الشعري ، وكل واحد منها في 30 جزعا ، وجمع الوراقين لتنميقتها وتذميمها والقراء لضبطها وتذميمها ، وصنع لها أوعية من الابنوس والمعاج والستيل فانفة الصنعة مغشاة بصفائح الذهب مرصعة بالجواهر والياقوت ، واتخذ لها أصونة الجلد المحكمة الصنعة المرقوم أديمها بخطوط الذهب ، ومن فوقها غلافات الحرير والديباج وأغشية الكتان ، وأوقف نسخة منها بالحرن الملكي ، ونسخة ثانية

وقد حديثنا على بن ميمون الفماري نفين لبنان في (رسالة الاخوان من أهل الفقه وحملة القرآن) التي كتبها بصالحية دمشق سنة 595هـ 1589م . ووجهها لأخوانه بفاس : أنه عندما كان بفاس - التي قال عنها أنه لما أتى إليها من غماره حوالي 867هـ 1463م وجدها روضة من رياض الجنة . - كان مولعا بالنسخ . فنسخ في علم الفقه وفي علم الفرائض والحساب كتاباً أمها وشروحها ، وفي علم الشعر والقوافي أما وشرحها وفي علم التوحيد كذلك أما وشرحها ، وفي علم الهيئة ، وفي علم الوقت والتعديل ، والطلسمات ، وعلم الاوقاف وسر الحرف ، وبالبسط والكسر ، وشيئاً من كتب البوبي ، والسباحات ، وتجارب الفرس ، وغير ذلك (60) وقد اهتمت كتب التربية والتعليم الغربية - او كتب أداب طالب العلم كما كانوا يسمونها بآداب النساء وقواعدها مثل (قانون) اليوليسي . ومنظومة (سراج طالب العلوم) للعربي المستاري وشرحها (طراز الذهب المرقوم) لوالدي أبي العباس أحمد بن جعفر الكتاني رحمة الله . وشرحها (الابتهاج) نشيخنا أبي العباس البلغيثي رحمة الله .

وفيها يوصى الناسخ : بتجويد المداد وتحسين الحروف ، وتقويم السطور ، وتفوير البياض بين السطرين ، وتلفرقة بين خط المتن وخط الشرح ، وان يكتب بالحمرة ترجم الكتاب وما اشبهها وتغليظ الحروف ان اتحد اللون ، وياتخاذ سكين لبرى القلم ونشر ما يقع في الكتابة من زيادة حرف او تحريف ، ويعذر من المبالغة في ترقيق القلم ، ومن المحو والاكثر من الضرب اي التشطيب ويأمره ان يصلح ما يجده في الاصل المنسوخ منه من لحن ظاهر اذا كان عند الناسخ من العلم ما يؤمهه لذلك ، وأما ما كان غير واضح فليكتب عليه (كذا) او يترك محله بياضا حتى يعثر على اصل صحيح يعتمد عليه .

وأخبرنى الاستاذ العابد الفاسي انه وقف على رسالة من عصر السعديين في موضوع الاصباغ والالوان وأنواع المداد والاقلام التي يكتب بها كل موضوع على حدة .

والى جانب معامل الورق الكثيرة التي قال صاحب

(60) داجع في الخزانة العمامة بالرباط الارقام : (1052، 95، 1780)

(61) ص 49 طبع حجر بفاس

وجه الكتاب تبادل الجملة) أي تقبل .

ناهيك أن بعض اللغات الاوربية - كالفرنسية مثلاً
اشتقت من كلمة (المغرب) (Maroc) Maroquin
وصف (مغربي) مجرداً عن ذكر الموصوف مراداً به الجلد المستعمل للتجليد الجميل ثم اشتقت من الكلمة كلية Maroquinier لصانع الجلد وبائعه .

وذلك احدى مظاهر تأثير الكتاب الغربي خارج المغرب .

ومن ابرز ذلك أيضاً منه الارقام العربية التي علمناها لأهل اوروبا فاستبدلواها بارقامهم الرومانية واحتفظوا لها فيما بينهم باسم الارقام العربية .

وقد اشار القلقشندي في (صبح الاعشى) إلى أن كتابة الامم السودانية مثل مالي والتكرور وغيرهم هي بالخط العربي على طريقة المغاربة (63) .

ونذكر عبد الفتاح عبادة في كتاب (انتشار الخط العربي) أنه تولد من الخط الفاسي خط جديد انتشر في جميع أنحاء السودان ، وذلك لانتشار الاسلام في تلك الأقصاع على يد أهل المغرب (64) .

وقال الدكتور حسن احمد يوسف السوداني في الكلمة التي ألقاها باسم الجمهورية السودانية في المؤتمر الاقليمي الاول بفاس للجان الوطنية العربية لليونسكو سنة ١٩٥٨ م : فأثر المغرب في السودان واضح في كل مكان : علمه القديم يدرس في المساجد وأثره واضح في الحياة الدينية في كل نواحيها (65) وذكر صبيتنا المرحوم الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد في آثار ورثته الجامعية (التربية في السودان من أول القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر) : أن من كتب الدراسة في السودان (النيل) : الأجرمية ، ومتنا الخراز ، كما نذكر لذلائل الحيرات ، ووظيفة الشانلى وأحزابه والطرق الناصرية ، والتيجانية والاحمدية

على المسجد النبوى بالمدينة المنورة ، وثالثة على المسجد الاقصى بالقدس الشريف (62) .

وقد وقفت على ما بقي من أجزاء النسخة الثالثة بالتحف الاسلامي بالقدس الشريف عندما زرته أول مرة اواخر سنة ١٩٥٩ م .

وفي الاسكوريال مصحف بخط المتصور السعدي كتبه بمحظول المعتبر و Mage الورز حسبما ذكر في آخره .

وقد اهتم المغاربة اهتماماً فائقاً بزخرفة وتذهيب وترويج المصاحف الكريمة وكتب الحديث النبوى الشريف وخصوصاً الصحبتين ، وكتب السيرة النبوية ككتاب الشفا لمياضن ، وشمائل الترمذى ، والاكتفاء للكلاعى وكتب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، كتاب دلائل الحuirات للجزولي وذخيرة المحتاج للمعطى الشرقي البجعنى ، والأمداخ النبوية ، كبردة البوصيري ومزميته ، ولامية كعب بن زمير ، ووتريات البقدادى وما أشبه ذلك .

بل ان كتب القصر الملكي تجاوزت ذلك الى زخرفة كتب الطب والصيدلة والهندسة والآداب والتاريخ والكميات والرحلات وغيرها .

ومكنا نملك المكتبة المغربية ثروة ضخمة جداً من الكتب المزخرفة والمذهبة واللونة الرائعة ، تبلغ آلاف المجلدات ، وتعتبر من اعظم ذخائر الحضارة الانسانية على العموم .

وقد بقيت صناعة النساخة مزدهرة بالغرب ، وعلى الخصوص بفاس ومكناس الى ما بعد الحرب العالمية الثانية .

وكنـك ازدهـرت بالـغرب صـنـاعـة زـخـرـفـة الجـلد ونقـشـه وـتـذـهـيبـه وـحـفـرـه اـزـدـهـارـاً كـبـيراً ، وـكـانـ بـفـاسـ وـمـاـ زـالـ - سـفـارـونـ مـاهـرونـ ، حتـىـ آنـفـ اـحـمـدـ بـنـ مـحـمـدـ السـفـيـانـيـ رسـالـةـ فـيـ تـسـفـيرـ الـكـتـبـ وـحلـ الـذـهـبـ ، كـمـاـ كـانـ بالـقـصـرـ الـمـلـكـيـ موـظـفـونـ خـاصـونـ بـذـلـكـ .

وقد اكتسب جلد الكتاب عند المغاربة الاحترام والمعظيم تبعاً لكتاب ، فجاء في المثل الدارج ، (على

(62) راجع مثلاً الناصري : الاستقصاء ج 127-131
(63) ج 5 ص 298 (64) ص 76-79 (65) المؤتمر الاقليمي ص 71 طبع الرباط

أو الادريسيّة المنسوبة لـأحمد بن ادريس الميسوري نزيل عسيرة (66) .

وان التعليم في أول أمره كان محصوراً بالأساتذة العرب القادمين من شمال إفريقيا ، وبعد مضي مدة تكونت طبقة منقحة من الأفريقيين تولت مهمة التعليم بعد أن تخرجت من المدارس العربية في المغرب ومصر (69) .

وان فرنسا وبريطانيا رائحتي الاستعمار في إفريقيا الغربية لم تستطعها تحويل أنظار الأفريقيين عن فاس وتونس والقاهرة ومكة (70) .

- وذكر الشيخ محمد البشير النيفر التونسي : أن تونس ، بعد الحملة الإسبانية عليها ، سنة 982هـ 1573م وحرق مكتتبها الإسلامية أعادت تجديد ثقافتها بالاستمرار من مصر ومن المغرب الأقصى .

وعندما زار جلالة الملك الحسن الثاني جامع الزيتونة المعلم (يوم الأربعاء 4 شعبان 1384هـ 9 ديسمبر 1964م) ارتجل بين يدي جلالته عميد كلية الشريعة بها صديقنا الشيخ محمد الفاضل بن عاشور خطاباً أشاد فيه بالدور العظيم الذي قام به علماء المغرب في تنوير الرأي العام التونسي ونشر المعرفة والثقافة العربية والعلوم الإسلامية بين التونسيين ، وقال :

أن كل شيء في هذه الجامعة يذكر بالغرب فابن عاشور ، وميار ، وأبن آجروم والشيخ الكوفي وأبن بري والخراز كلهم يذكرون التونسيين بالغرب وأبو الحسن الصغير ، والتسلوي ، والشيخ التاودي ابن سودة ، وبيناني والرهوني يذكرون بالمستوى العالمي العلمي بالغرب .

وان خزانة هذا المسجد ومكتباته العلمية المشتملة على الآلاف من النذار العلمية لتذكر مطالعها باجتهاد علماء المغرب في نشر الفكر والثقافة الإسلامية وتوسيع نطاق الثقافة العربية بهذه البلاد .

وقال الشيخ ابن عاشور : إننا مدينون في هذا الميدان للمغرب بكل شيء ، فنحن نقرأ القرآن بوقف المبطى - القاسي ، ونصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلاوة دلائل الخيرات للجزولي ، ونتفهم فضائل النبي

كما تحدث الاستاذ عبد المجيد عابدين المدرس بكلية الخرطوم الجامعية في كتابه (الثقافة العربية بالسودان منذ نشأتها إلى العصر الحديث) عن أن المغرب كان منبعاً من متابع الثقافة الإسلامية في السودان ، بواسطة القبائل العربية الغربية (ص 40) وبواسطة العلماء المغاربة (ص 55 - 56) والطرق الصوفية : كالشاذلية (ص 64)

وطريقة السيد احمد بن ادريس الفاسي بواسطة تلميذه محمد الامير غني الذي أرسله إلى السودان فنجح دعوته نجاحاً تاماً ، وبواسطة غيره من تلاميذه الذين أخذوا عنه بمكة (ص 97-96) والطريقة التجانية ، والرحمانية التي هي فرع من الدرقاوية ، والطريقة البدوية نسبة لسيدي احمد البدوي الفاسي دفين طنطا (ص 98-99)

ونكر لي صديقنا الاستاذ الصديق ابن العربي : أن المستعرب الفرنسي جان بيير أخبره أنه لاحظ في مكتبي "المهدى والمرغيني" بالخرطوم أن أغلب كتبها بالخط المغربي .

ومن رجع إلى مؤلفات أهل تمبكتو وسوكتو مثله ، مثل مؤلفات احمد بابا السوداني ، والشيخ المختار الكنتي ، وولده محمد وحفيده احمد البكاري ، وسلطان سوكوتور محمد بيلو بن السلطان عثمان انفوبيو الفلاني ونحوهما رأى إلى أي مدى بلغ تأثير الكتاب المغربي في هذه الأقطار .

وفي رسالة (إفريقيا الغربية في ظل الإسلام) ، لأستاذ السورى نعيم قداح الذى عمل مدرساً للغة العربية في جمهورية غينيا سنة 1960 ، اشارات كثيرة إلى أثر الثقافة العربية المغاربة في إفريقيا الغربية .

مثل انتقال حب المغاربة للنحو والصرف إلى الأفريقيين ، لأن كثيراً من كتب النحو قد حملها الأساتذة العرب إلى إفريقيا الغربية فيما أدخلوه إلى تلك الأصقاع (67) .

وأن الدراسات الإسلامية الابتدائية هناك تفتقر إلى المراحل العليا في تمبكتو وفاس والقاهرة فيما إذا أراد

(66) ج 1 ص 155، 154 ، 156 ، 158 ، 242 ، 245 (67) ص 145 (68) ص 145 (69) ص 142 و 143 (70) ص 152

قال : « ولم يات على اليوم الخامس الا وقد صار أبغض شيء الى ما كنت أحبه من لعب ولعبه ، وفخفة وزهو ، وعاد أحب شيء الى ما كنت أبغضه من مطالعه وفهم » .

وكان الكتاب الذي جاء به الشيخ درويش ليقرأه له بخط مغربي دقيق (72) .

على أن التعرف بتفصيق على آثار الكتاب المغربي خارج المغرب ، يتوقف على ارسال بعثات ثقافية ل مختلف البلاد لتقross آثار الصلات الثقافية بينها وبين المغرب في مختلف العصور .

هذه نظرة خاطفة عن الكتاب المغربي وقيمه ، ينقصها كثير من التفصيل وضرب الأمثلة وابراز الجمجم والشوامد مما لا يتسع له الوقت الضيق المحدد لها ، الحديث بينما الموضوع شاسع الاطراف فسيح الجواب يتسع الكلام فيه للمجلدات الضخمة العديدة .

وختاما نتمنى من صميم افتئتنا أن تتحرر بلادنا في القريب العاجل ، من وطأة الاستعمار الفكري وعار الاحتلال اللغوي ، وخزي التبعية الثقافية ، حتى يستطيع الكتاب المغربي العودة من جديد لمواصلة رسالته الدينية والعلمية والثقافية والحضارية في الداخل والخارج ، كجزء لا يتجزأ من الكتاب العربي ، له طابعه الخاص وشخصيته المتميزة ، فتحقق من جديد وحدة الكتاب العربي ، وبالتالي وحدة الثقافة العربية ، كما تحقق من قبل في القرون الخالية ، والاجيال الماضية وما ذلك على حمة وطنية لامة المغاربة العربية المسلمة المكافحة ببعيد

بحول الله .

محمد ابراهيم المذانى

صلى الله عليه وسلم وما خصه الله به من مكارم الاخلاق بواسطة كتاب الشفا للقاضي عياض ، كما ان روایة علماء تونس الحديث كلها تتصل في القديم والحديث بعلماء مغاربة من عهد دراس بن اسماعيل وأبي عمران الفاسيين .

ثم وضع بين يدي جلالته واحدا من عشرات الكتب الدينية والابدية التي يجد علماء تونس في مطالعتها متnea . وفي مراجعتها خير آناء لفهم العلم وتحصيله ، وهو مجموع يضم اربعة من مؤلفات السلطان محمد ابن عبد الله الذى كان صاحب مذهب كبير ومدرسة حديثية ممتازة (72) .

واما آثار الكتاب المغربي في مصر ، فنكتفي منه بذكر واحد يغنى عما عداه ، وهو ما حكاه الاستاذ الامام الشیخ محمد عبد فيما كتبه من ترجمته الشخصية ، عن نفوره من العلم في بدء طلبه له بتلقى شرح الكفراوى على الاجرومية وقضاءه سنة ونصفا لا يفهم شيئا ، لريادة طريقة التعليم . وفرازه الى الشیخ درويش أحد اخوال أبيه الذي جاء بكتاب وساله ان يقرأ له شيئا منه لضعف بصره ، قال : « فدفعت طلبه بشدة ، ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ، ونفرت منه أشد النفور ، ولما وضع الكتاب بين يدي رميته الى بعيد » ، لكن الشیخ تبسم ، ولم يزل به حتى أخذ الكتاب وقرأ منه بضعة أسطر . فاندفع الشیخ درويش يفسر له معانى ما قرأ بعبارة واضحة ، تفالب أغراضه فتلبله وتسبقه الى نفسه .

وفعل في اليوم الثاني كما فعل في اليوم الاول ، أما اليوم الثالث فبقي يقرأ له وهو يشرح له معانى ما يقرأ نحو ثلاثة ساعات .

(71) من المؤسف ان كتاب (سبعة ايام في تونس) أهمل تسجيل خطاب الشیخ ابن عاشور والجواب القيم

الى ارتجله جلالته (ص 55)

(72) محمد رشيد بوصى : تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص 20-24 .